القصة الطائرة

أو

آفة الدين البدع

بقلم

محمد السعيد مصطفى

الثمن ١٠ ﷺ

obeikandl.com

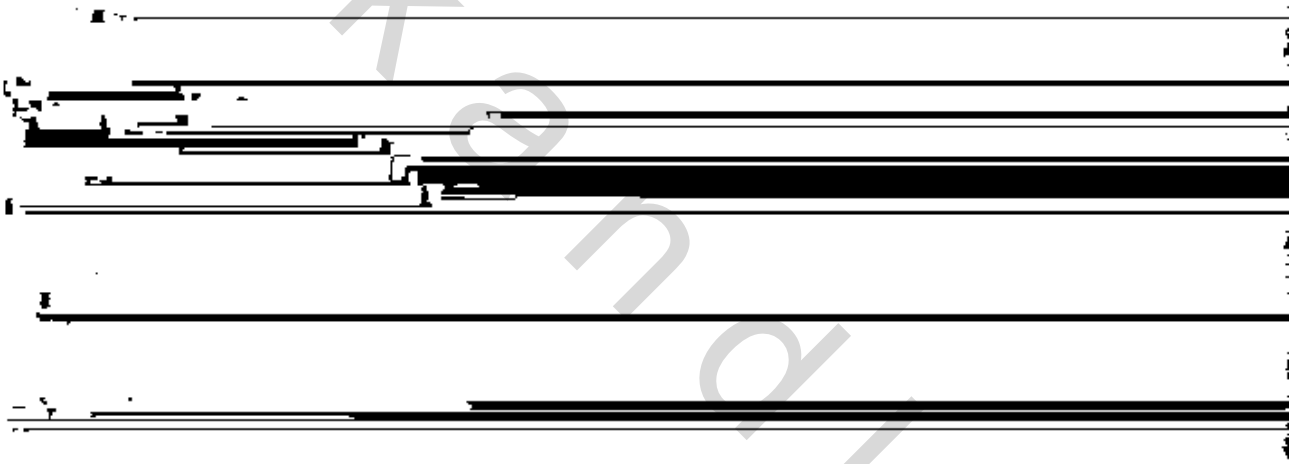

obeikandl.com

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم . ولا الضالين . »

(آمين)

obeikandl.com

obeikandl.com

تقديم الكتاب

إلى القراء الكرام :

إنى أشعر إذ أعرض عليكم موضوع هذا الكتاب أننى بين عاملين : عامل الحياء ، وعامـــل الفخر . أما الحيـاء فأول دواعيه أن أقف أنا الضعيف مع علماء الدين فى بيـان إعجـــازه . وأما الفخر فحسبى أن أعرض رأياً قد يحظي بتأييدكم فى مثل هذا الموضوع الدينى الخطير .

على أننى مارغبت قط فى أن أخرج بهذا الكتاب لأكـرر قولا سبقنى اليه غيرى من أئمـــة الدين . وحجج الإسلام . بل إن مادفعنى إلى إختيار الكتابة فى الأمـــور الدينية . أن ضمتنى وجماعة من الشباب مجالس عدة ، دار النقاش فيها حول إصلاح عقيدة هذه الجماعة . فقـــد كان أكثر أفرادها من أولئك الذين تراموا فى أحضان الشيطـان وغذوا أنفسهم البريئة . بتعـاليمه الدنيئة . إلى أن وصـلوا إلى

هذا الانحراف الذى نراه قد طرأ اليوم على أخلاق الشباب وأخذ يدب فى أنفسهم ، دبيب السم الناقع فى الجسم اللديغ . وذلك بلاشك نتيجة عدم تغذية أرواحهم بآداب الدين ، مما جعلهم يثبون على كراهيته ، ويعادون أوامره . — ومن جهل شيئاً عاداه — فأصبحوا زائغي العقيدة ، سقيمى الوجدان . لا ينصتون إلا لصوت هواهم ، ولا يستجيبون إلا لنزوات أنفسهم ، ولا يستمعون إلا لنداء شهواتهم . يرون أن الإنسان يجب أن يكون كالطائر حراً طليقا . وأن لا يقيد هذه الحرية قانون من القوانين . ولا دين من الأديان . يريدون من الحياة أن تقتصر على اللهو واللعب . والمرح والمجون . وهم فى تصورهم هذا ، مخدوعون بجمال المدنية الغربية ، التى بلغ من تعثرهم فى فهمها ، أن إتخذوا منها سلاحاً أشهروه على رجولتهم ، ليمنعوها من الظهور إلى إلى العالم . والبروز إلى الحياة . فغدت الرجولة فيهم مريضة معتلة . ولو تمكنت منها الأيام المقبلة ، لأطالت السلاح المسلط عليها ، حتى تطعن بنفسها . وتموت فى شبابها .

فالمدنية فى بلدنا صارت تعيسة مغلوبة على أمرها ، لأنها

تجرى على عكس غايتها . بسبب هؤلاء الذين نسوا أنه لا جمال للمدنية إلا مع الفضيلة . ولا معنىً للحرية إلا مع الشرف . بل إنه لاحرية إلا لمن يلقى الناس بعرض سليم .

هذا الخلاف فى وجهة النظر، كان شاغلا لمعظم جلساتنا . وبالتالى كان تكراره دافعاً لى لأن أتناول بالكتابة موضوع هؤلاء المجادلين . غاضًّا النظر عن أمر الزنادقة منهم والملحدين . إذ أن هؤلاء قد أعمى الله أبصارهم ، وران على قلوبهم . فلا حيلة لنا فيهم ، ولا شأن لنا بهم . وإنما نترك أمرهم وهدايتهم إلى الله . ولكننى أعنى بالقول هؤلاء الذين ينتسبون إلى دين لا يبلغ من أنفسهم إلا كما يبلغ الماء العذب ، إذ يسقطُ على أرض سَبِخَة . فلا تُفيد منه شيئاً . ولا تُجدى به على الناس نفعاً .

وهؤلاء كثيرون ويمثلون السواد الأعظم من المسلمين الذين يعيشون فى الحياة بعقيدة حائرة . إذ يخرجون إليها مزودين بالكثير من العلوم إلا الدين . فلا يعرفون من الإسلام إلا اسمه . ولا يدرون من مبادئه إلا ماتلقوه تقليداً عن غيرهم . وما تشبعوا به فى المدارس من التعاريف الأولية

للدين . فتراهم يعيشون فى الحياة :

كريشة فى مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

يصدقون كل جديد على سمعهم . ويتأثرون بما تكتبه المجلات الإلحادية من الإستهانة بالدين . فيقفون من الدين موقف الحيرة . ويغلب عليهم الشك فيخوضون حمأة الرذائل . ويكونون مثالا لغيرهم فى التحلل من جميع التبعات الدينية . وهذا الأمر قد فقه إليه أعداء الدين . فتراهم لا يتقدمون بدعايتهم إلا إلى أمثال هؤلاء . يريدون جرفهم فى تيار فسادهم . ولا يجرأون على مجادلة علماء الدين لإزالة شبههم . لأن بضاعتهم خاسرة لا تحوى إلا قولا بذيئاً حذقوه . يسخرون به الدين . ويطعنون به فى النبى العظيم . ويلقون الشبهات جزافا على الكتاب الكريم . وبهذه المغالطات يتقدمون إلى من لا يستطيع أن يجادلهم بحق . ولا يملك ما يدفع به تلك الشبهات . ويدرأ به هذه المغالطات . فإن عارض إنتصاراً للدين طالبوه بالدليل . وأنى لمثل هذا بالدليل ؟

وهكذا تحير عقولهم فى أمور دينهم . ويبحثون عبثا فى جعبتهم عما يلزم لصد هذه الحملات . فيستعصى عليهم الدليل .

ويقعون صرعى مستسلمين لهذه الآراء الضالة . وقد يصد بعضهم عن الإسلام . ويبقى البعض منتسباً إليه . ولا يعملون به . ويقفون من أهلهم موقف المقلد فى دينه ودنياه . ويتلقون جميع المبادىء ميراثاً ولو شراً . فيضيفون الرجس على الرجس . وتقوى عندهم الظنون والأوهام . مع أن الإسلام ليس من مبادئه الأخذ بالتقاليد والموروثات . بل يريد من المسلمين أن يكونوا سواء فى العلم بدينهم . لا يحاكون الأديان الأخرى التى تقصر التخصص فى الدين . والإلمام بتعاليمه على فئة القسس والرهبان . وفى ذلك نرى القرآن الكريم ينهى عن التقليد . وينعى على المقلدين . فقد قال الله تعالى :

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ . وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)

ولا يغيب عن البال ما أدت إليه هذه الحالة . من أن

يخلط الكثير من المسلمين بين تعاليم الدين الحقة . وما سموه من البدع والخرافات ونتج من هذا الخلط ما نوهت عنه من تصرفاتهم السيئة . وأحلا لهم دينَ الهوى محل دينِ الله . (وإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ)

ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن الأمة وقد أحست بالخطر الذى ينتظر ضعيفى العقيدة الدينية . كانت لها نهضات مباركات فى تأسيس الجمعيات الإسلامية . التى تبث تعاليم الدين فى أرجاء القطر ونواحيه . بواسطة الوعاظ والمرشدين . ولكننى وقد كنت أحد العاملين فى بعض هذه الجمعيات . رأيت أن فى إنتهاج هذا السبيل وحده قصوراً عن إتيان الفائدة المرجوّة . والغاية المنشودة . إذ تبينت أن كل شىء فى حياة الشباب اليوم توحى به المدنية الزائفة التى قعدت بهم عن حضور مجالس العلماء . وشهود دروسهم . وسماع مواعظهم . والإهتمام بمحاضراتهم . فكان من العبث أن يحبس

الإنسان جهـــاده بين جدران الجمعيـــات . بل كان من الواجب أن يتلمس الداعى إلى دين الله طريقاً آخر يحقق رغبته . وينشر دعوته . فغـــير الجهاد ماست به الحاجة ودعى اليه الصالح العـام .

فكتابى هذا محاولة جديدة فى سبيل أداء المسلم لرسالته ولست أزعم أنه يسد فراغاً تركه العلمـــاء ورجال الدين . بل إن جهادهم فى ذلك معروف . وسعيهم فى الهداية ملموس . ولكننى أعتبره رسالة مسلم لإخوانه المسلمـــين . يدعوهم فيها إلى العمل بدينهم . والاستمساك بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى تكون لهم من ذلك قوى ثابتة . يقابلون بها أعداء الدين . فيقنعونهم بالدليل . ويستطيعون تحصين عقيدتهم من إلحادهم . وصون فكرتهم من أباطيلهم . والسبيل الذى سلكته فى تبيان ذلك . هو الإستمـــداد من نور القرآن الكريم . وهو خـــير مايهتدى به فى هذا البيان .

(إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْـدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ)

وأختتم قولى بشكر الله جل وعلا ، إذ سألته التوفيق لإخراج هذا السفر . فأعاننى فى إصابة ذلك الغرض . فهو نعم الكفيل لمن التجأ اليه . وأعتصم به وجعل المعول عليه ؟

المؤلف

الدين

الدين كلمة موجزة فى معناها . قصيرة فى حروفها . إذا تفهمناها وتدبرنا مرماها ، رأينا أنها توحى إلينا بموضوع شامل واسع . وهى لا تمثل إحساس فرد معين . ولا تعبر عن عقيدة شخص واحد . ولكنها تصور عاطفة تختلج فى صدور الآدميين . وتعبر عن إحساس يملأ نفوس كافة الإنسانيين . فهى إذن كلمة حق وصدق .

وقد يكون من فضول القول أن أبين هنا أثر هذه الكلمة فى حياة الأفراد والجماعات . فهذه مسألة فرغ الناس منها وقالوا كلمتهم فيها من عهد بعيد . وحسبى أن أشير إلى أن الدين — أيا كان نوعه — ظاهرة إجتماعية طبيعية ، نبتت مع الجماعات الإنسانية . ونمت بنموها ، وتطورت تبعاً لها . فحيث يكون الإجتماع يكون الدين .

فعاطفة الدين من العواطف الطبيعية التي لازمت الإنسان

إلى اليوم . وستظل ملازمة له إلى أن تفنى الأرض ومن عليها .
وقد رأينا كيف أن أولئك الذين ناصبوا الأديان العداء .
وأثاروا عليها حرباً شعواء . لم يستطيعوا أن يزعزعوا من أركانها
ويقوضوا من دعائمها . بل إن الأمر كان ينتهى بهم دائماً
إلى التسليم بأن الدين قوة لا يقوم المجتمع إلا بها ولا ينهض
إلا عليها . وحسبنا دليلا على ذلك أن جميع طرق الترقى
والتهذيب التى أوصوا بها تستند من قرب أو بعد إلى الدين
وبهذا وحده أمكنها أن تبقى واستطاعت أن تجد سبيلها إلى
نفوس الناس . فليس هناك من شىء غير الدين يَفْجُرُ من القلوب
ينبوع الفضائل . ويطبع النفوس على الأدب الكامل ، والخلق
الفاضل . ويعودها حب الخير . والرغبة فى المعروف . والزهد
فى المنكر . ويحميها من إقتراف الموبقات . ويحفظها من الوقوع
فى حمأة الرذائل . فحياة الأمم وموتها . وعزها وذلها . وقوتها
وضعفها . ورقيها وإنحطاطها . وإنتصارها وإنخذالها . كل ذلك
يرجع إلى سبب واحد هو — الدين — فبقيام الدين تحيا
الأمم . وبانعدامه تموت (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)

وعلى هذا نرى أن مسألة الدين من أهم المسائل الإجتماعية التى تتجه إليها عناية المصلحين فى كل الأوقات . ولهذه الأهمية عُنيت بأن أبحث هذا البحث الدينى . ولا أقتصر فيه على أصول الدين وقواعده . ومدى ملاءمتها للحياة فحسب . بل أتناول أيضاً البحث فى ناحيته التهذيبية الخالصـــة . لنرى كيف السبيل إلى إيجاد الضمير الدينى . الذى يسيطر على أعمال المرء وسلوكه ، وعلاقته بغيره . ولا شك أن لهذه الناحية أهميتها متى علمنا أن الحياة إمتدت بنا إلى زمننا هذا . الذى نرى أن القابض فيه على دينه أصبح كالقابض على الجمر . فبينما نشعر بأن بين أيدينا ديناً قويماً يكفل سعادة الدنيا والآخرة . نرى أن هذا الدين ينأى عنا شيئاً فشيئا . أو على الأصح نحن نأى عنه شيئاً فشيئا . حتى صرنا إلى حالة تدعو للخوف والقلق . وقد كان من أثر ذلك أن إستحال علينـــا أن نرى الجو الدينى الروحي الصافى البديع . الذى كان ينعش أسلافنا بالأمل الخالد . وباستحالة ذلك الجو إستحالت معه تلك الحياة الوجدانية الخصبة . إلى حياة قاتمة مجدبة ، راكدة عابسة ، ضقنا بها وضاقت بنا . وأصبحت فى نظرنا جَحِيماً مُسْتَعَرًّا وَعَذَاباً أَلِيماً .

والواقع أن ذلك راجع إلى أن كثيراً منا قد غالوا فى التفريق بين التعليم الدينى . والتعليم الخلقى . ويحسبون أن مرد أحدهما إلى الدنيا ، ومرد الآخر إلى الآخرة . وأحسبنى فى الرد على هذا لست فى حاجة لبيان أن الدين الإسلامى من بين سائر الأديان ، يتجه فى أصوله وتعاليمه إلى الجمع بين الدنيا والآخرة . وسأبين فيما يلى كيف يُعنى بتنظيم الحياة العادية للفرد والمجتمع ، عنايته بالحياة الأبدية الخالدة .

obeikandl.com

الإســـــلام

جرت سنة الله في مخلوقاته أن يربيها بعنايته . وينميها برعايته حتى تبلغ ذروة الكمال وتلبس ثوب الجـــلال . فالطفل يولد ضعيفاً . لاحول له ولا قوة . ولا بطش ولا مشي . ثم يفيض الله عليه من رحمته . وينقـــله من طور إلى طور . حتى يضحى شاباً فتياً . كاملاً قوياً .

وهكذا الشرائع السماوية . مازالت تحكم بتدبير الله وتقديره ، حسب تطور الإنســـان في عصوره . حتى بلغت أوج كمالها ، ولبست ثوب جلالها . على يد خاتم النبيين . محمد سيد المرسلين صـــلى الله عليه وسلم . (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

ففي السنة العاشرة للهجرة المحمدية . أكرم الله تعـــالى المصطفى عليه الصلاة والسلام . وأمته الإسلامية . بهذه البشرى

العظيمة (اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً).

ومنذ ذلك الوقت توطدت أحكام التشريع . وحفظ قانونه من التبديل والتغيير . وسيبقى الحق منصوراً . ويستمر الباطل مدحوراً . حتى يأتى أمر الله . ويبلغ العالم منتهاه . (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

فالإسلام هو الدين الذى بعث به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهو يتحد مع سائر الأديان التى دعى إليها الرسل قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، من حيث إنقاذ الناس من الضلالة ، وإبعادهم عن الغواية ، وإرشادهم إلى إعتقاد العقائد الصحيحة ، وهديهم إلى مافيه صلاح حالهم ، وإستقامة أحوالهم ، وتقويم أنفسهم ، وتهذيب أخلاقهم . ولكنه يختلف فى أن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم، أرسل به إلى الناس كافة . وكان أسلافه من الرسل يبعثون كل بدين إلى قوم مخصوصين .

ومن وجوه حكمة الله عز وجل فى عموم الرسالة المحمدية — التى إختتم بها الرسالات — أن يفتح بذلك الطريق لقيام أخوة إنسانية . تجمعها غاية واحدة . وتعمل فى ظل مبادىء

واحدة . وتتناول غذاءها الروحي من الكرم الإلهي على مائدة واحدة . وقد كان هذا بلاشك بعد أن تهيأت لذلك الإنسانية ، وتم إستعدادها لقبول هذا الدين الشامل الكامل . الذى تتجه أصوله وتعاليمه إلى الجمع بين الدنيا والآخرة .

فالعدل ، والمساواة ، والحرية ، والأمانة ، والعفة ، وما إليها من الفضائل الإجتماعية الدنيوية . جزء من هذا الدين القويم . كما أن الندم ، والتوبة ، والزكاة ، والصلاة ، وما إليها من العبادات أصل من أصوله .

لهذا كان الأسلام هو دين العالمين ، الخالد على مر السنين . فأشتمل على كل ما من شأنه صلاح الأمم وسعادتها ، وأتى بالنظم الحكيمة ، والقوانين العادلة ، التى يسير الأنسان بمقتضاها على بصيرة وهدى فى معاملة أصله ، وفرعه ، وعشيرته ، وجيرته ، والناس أجمعين . معاملة تعود على الفرد والأمة ، بتوثيق العلائق . وربط القلوب . حتى يصير الجميع على حالة من التضامن والتآخى تجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . وأبان الأحكام الشرعية التى توصل إلى إنتظام الأحوال المعاشية .

فامر باتحاد الكلمة وعدم التفرق . بقوله تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا)

إذ رأى أن الأنسان مدنى بطبيعته ، محتاج إلى إخوانه ومعاونيه . لا يكاد يستغنى فى أمر من الأمور عن الاستعانة بهم ، والإسترشاد بتعاليمهم . كما قال بعض الحكماء : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه . وكما قال بعض الأدباء فأحسن وأجاد : أفضل الذخائر أخ وفى حميم ، صادق المودة ، لطيف الصحبة ، يهتم بشأنك إهتمامه بشأنه ، ويتوفر على هنائك كما يتوفر على هنائه ، والصديق الحميم عدة فى البلايا ، وعمدة فى المحن والرزايا ، وبلسم فى النوائب ، ومرهم فى الشدائد .

لذلك كان من عظيم لطف الله بعباده أن يجعل من أخص صفات المؤمن أن يكون إلفاً مألوفاً . لأن الألفة والمحبة عقد روحى بين المتآلفين ، يوفق بين مصالحهم ، ويوثق عرى مودتهم ، ويعينهم على مرافق حياتهم ، ويساعدهم على الصدق فى تبادل المنافع فيما بينهم ، ويشعر كلا منهم بأن حاجته مرتبطة بحاجة أخيه ، يجب عليه أن يسعى فيها ، ويساعد على قضائها ، كما يسعى فى مصلحة نفسه . لتتحقق فيه المنفعة لإخوانه

وأصدقائه، ويقتصر بالألفة على مناوئيه وأعدائه، ويصدق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه).

بهذا كانت الأخوة والألفة نعمة أنعم الله بها على عباده. تزدهر بها الشجرة الإنسانية، وتزهو دوحة الجامعة الإسلامية، وقد أشار سبحانه وتعالى فى معرض الامتنان وتعداد النعم، إلى عظيم هذه المنة: فقال جل شأنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) وقال تبارك اسمه: (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ. لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

ولم تكتف الشريعة الإسلامية بأن تقضى بالألفة والتآخى بين المسلمين وإن تباينوا ديارا وأوطانا، واختلفوا ألسنة وألوانا. بل دعمت ذلك بقواعد ثابتة، وأصول قويمة. فقررت على كل مسلم لأخيه حقوقا يجب مراعاتها، وواجبات يتحتم

الوفاء بها . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقوق في قوله : (حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه . وإذا دعاك فأجبه . وإذا إستنصحك فانصح له . وإذا عطس وحمد الله فَشَمِّتْهُ . وإذا مرض فعده . وإذا مات فاتبعه) .

وهذه ولاشك خصال كلها مدعمة للترابط ، مبقية على التآخي ، داعية للمحبة ، حافظة للتآلف . لو أخذ بها المسلمون الحاليون كما أخذ بها الأولون ، لأصبحوا وقد وجدوا أنفسهم قوة تهاب ، ومجموعة ترهب ، وكتلة يصعب على الطامع الجشع أن يقطعها ، ويتعسر على الغاصب النهم أن يزعزعها . وهذه الخصال أو هذه الحقوق كما يسميها الحديث الشريف ، لا تكلف الآخذ بها صعباً ، ولا ترهقه من أمره عسراً . بل هي سهلة والأخذ بها يسير كل اليسر ، ولين كل الليونة .

أو ترى أنه يشق عليك قولك لمن يلقاك (السلام عليكم) ؟ أو يصعب عليك مقاسمتك أخاك الأفراح فتخطو إلى بيته إذا دعاك ؟

أو يكثر عليك أن تهبه ماعندك من قول معروف ،

ونصح حكيم إن هو استنصحك؟

لا وربي. ولا يرى في ذلك عسراً إلا من خلق لنفسه، وعاش لشخصه. وبئس الفرد في المجموعة البشرية. لأن الأنانية بغيضة، والفردية آفة. وهناك مبدأ قويم مسلم به من الجميع وهو — ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط — فواجب الإنسان في أن يحيا للمجموع. ولا يقتصر على أن يعيش لنفسه. فالعيش في مقدور كل حي يتنفس. حتى ما كان من الحيوانات في المرتبة الدنيا. أما الحياة الحقة هي الحياة العاملة الفعالة. الحياة التي تكرس لخدمة المجموع. والتي تجعل من الفرد قوة تعمل فيه. وهي حياة لا يطيقها إلا من صفت نفسه. وأشربت حبّ التضحية وإنكار الذات.

وفي ميدان العمل الصالح متسع للجميع. (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا).

العالم يعلم، والطبيب يداوي، والفقيه يرشد، والزاهد يعظ،

والكاتب يكتب ، والغنى يعين ذوى الحاجة . والناس إذا كان مثريهم لمعوزهم ، وقويهم لضعيفهم ، وصحيحهم لسقيمهم ، وعالمهم لجاهلهم ، ومرشدهم لضالهم · عاشوا بخير . وذكروا بعد ذلك بالثناء العاطر (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)

وطبيعى أنه متى قام الشخص بهذه الواجبات نحو أخيه . فيستلزم ذلك الأمر أن يقابل الشخص الآخر صنيعه هذا بأحسن منه . ويستوجب ذلك أن يرد له الجميل مضاعفاً (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ) .؟

فإن كفر ذلك الشخص صنيعك ، وجحد جميلك . فحسبك جزاء أنك قمت بالواجبات التى فرضت عليك (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .)

ويأمر الدين — زيادة فى الألفة ، ورغبة فى المحبة — بنبذ التباغض ، والتحاسد ، والتنازع ، وذلك فى قوله تعالى : (وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

وكذلك يقضى ببر الوالدين ، ومعاملتهما باللطف ،

والإحسان اليهما وذلك بقول الله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

وحكمة ذلك معلومة لدى كل إنسان. لأن والديه هما أصل وجوده فى الحياة. وتعتبر الأم مقدمة فى البر على الأب. لما قاسته فى حمل الابن من تعب، وما لاقته فى تربيته من نصب. قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا. وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، وَعَلَى وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ). ولا يقتصر البر بالوالدين على حياتهما فقط، بل يكون بعد موتهما أيضاً. بالصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإيفاء عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما

وقد سار رسول الله صلى الله عليه وسلم على هدى القرآن فى الأمر ببر الوالدين، وبيان حكمة ذلك . ووردت عنه صلى الله عليه وسلم فى فضل البر أحاديث كثيرة . أعتبر العقوق فيها من أكبر الكبائر . وأجمعت أحاديثه صلى الله عليه وسلم أيضاً على أن لافرق فى البر بين أن يكون الوالدان كافرين، وأن يكونا مسلمين . تصديقاً لقوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وبديهى أن تعظيم أمر الوالدين يرجع - كما قلنا - إلى أنهما السبب الظاهرى فى إيجاد المرء وتعيشه . ولا تكاد تكون نعمة أحد من الخلق على الإنسان كنعمة والديه عليه. وأرى أن ليست هناك حاجة للإسهاب فى ذلك . لأن أمره واضح . ولا يخفى على ذى العقل السليم .

ومن أوامر الدين كذلك صلة الأرحام . بالإحسان إليها

إن كانت فقيرة ، وبالتودد إليها بالزيارة ونحوها إن كانت غنية . وذلك بقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

فنحن نرى من هذه الآية أن الله حث على صلة الرحم وبرها . كما نهى عن حرمانها وقطعها فى قوله تعالى : (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

لهذا كانت صلة الأرحام من أفضل الخصال ، وأجمل الخلال . وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى التمسك بها حتى جعلها سببا فى سعة الرزق وزيادة الخير . فقال : (إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون فجارا فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم) .

وكذلك التعاون على الخير وذلك فى قوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى . وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) والبر والتقوى اللذان تأمر الآية الشريفة بالتعاون عليهما هما فعل الخيرات . كما أن الإثم والعدوان التى تنهى عن التعاون عليهما فيهما كل المنهيات . ولاشك أن فى إقبال الناس على فعل الخير وتعاونهم على أدائه . واجماعهم على السير فى طريقه . تمكين لهم من تبادل المنافع فيما بينهم . وقضاء البعض للبعض ما هو فى حاجة اليه ولا يستطيع الحصول بنفسه عليه .

وقد قال الله تبارك اسمه فيما حكاه عن نبيه موسى عليه السلام ، من طلبه معين له فى تبليغ الرسالة . مبيناً سبحانه وتعالى مايترتب على ذلك من الفوائد والمنافع (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً . وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً) .

فسيدنا موسى عليه السلام استوهب من ربه عندما أمره

الله بالذهاب إلى فرعون ليبلغه رسالته أن يجعل له وزيراً أي معيناً يعاونه في القيام بأعباء ما كلف به عليه السلام من قبل ربه ويعتصم برأيه . ويلتجىء اليه في أمره .

وقد أجاب الله سؤاله عليه السلام كما أفاد بقوله عز وجل : (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى) .

ويقضي الدين أيضاً بأداء الأمانة كقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) .

ذلك أن من أخذ أموال الناس سواء على سبيل القرض ، أم على جهة الأمانة ، فيجب عليه ألا يأكلها بالباطل ، ويضيع الحق على صاحبه . لأن هذا لا يتفق مع جميل من أحسن اليه ، وفرّج كربته . وهو بمخالفته لأمر ربه في أداء الأمانة لأهلها ، يعد منافقاً غشاشاً ، ويستحق لعنة الله وعقابه . ولا شك أن هذا الفعل أيضاً من الظلم بحيث ينال صاحبه ماوعد الله به الظالمين ، من نزع ثقة الناس بهم ، وجعلهم عبرة بين خلقه (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) .

ويأمرنا الإسلام تبعاً لذلك بالعدل . فيقول الله سبحانه وتعالى لعباده : (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) فالله

تعالى قرب بين ذاته العلية . وبين الإنسان العادل . وحبب الأخير إلى نفسه القدسية . ولا يكون هـذا بلا شك إلا لبيان فضل العـدل فى نظام العمران ، ومزيته فى سعادة العالم . فهو أمر يحتاجه الناس جميعاً ، وتنشده الخلق عموماً . وكفى المرء العادل فخراً أنه بعدله يتقرب إلى الله تعالى . الذى جعل هذه الصفة السامية، من صفاته العالية . وذكر ذلك فى غـير موضع من القرآن الكريم فقال: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) وقال تعالى: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وفى هذا إشارة إلى شأن الله مع عباده يوم القيامة ، ليضرب لهم المثل الأعلى فى التمسك بالعدل الذى أمرهم به فى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

والإنسان مطالب بأن يأتى العدل مع نفسه ، بالاعتدال فى العقيدة والعمل . فلا يتمرد على الله ورسله ، ولا يلقى بنفسه فى تيار الشهوات التى تهلكه من حيث لا يدرى . وأن يأتيه مع

غيره ، لياً من شرور الناس وحقدهم عليه . مما أن عدل الإنسان فى شهادته أمر له قيمته ، متى علمنا أن الله تعالى نبه إليه على حدة ، فى غير المواضع السالفة . فقال جل شأنه :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فبقوله تعالى — قوامين — أوجب جل شأنه المواظبة على العدل فى جميع الشئون والأحوال — وبقوله تعالى - شهداء لله - إلى - أو الوالدين والأقربين - حث سبحانه على أن تكون الشهادة ابتغاء مرضاة الله . لا تؤثر عليها الأغراض الحيوية . كما نبه تعالى الشاهد إلى عدم التحيز بدافع القرابة أو النسب . ويعنى عز وجل بقوله — تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا — زجر شاهد الزور عن تغيير الشهادة أو عدم أدائها . فيجزيه على ماعصاه .

وختام القول أن كل إنسان مطالب بأن يعدل فيما يناط به من عمل . عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلكم

راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيتها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته) .

ومن الأخلاق الفاضلة — الحلم — بل هو سيدها . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد دعى القرآن الكريم إلى التخلق به بقول الله تعالى : (وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ اِدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . فَاِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

فهذه الآية تحث على مقابلة الاساءة بالاحسان ، والذنب بالغفران ، والغضب بالحلم ، والغيظ بالكظم ، وتبين الثمرة المترتبة على ذلك من أن يصير العدو كأنه قريب بتأثير الشفقة التى تملكه . وتوضح فضل من اتصف بهذه الخصلة الحميدة من أن ينال نصيبا وافرا من السعادة فى الدنيا والآخرة .

والحلم منحة إلهية . ونتاج إرادة قوية ودليل سلامة

الأعصاب أولاً . وسلامة الأبدان آخراً

ولبيان منزلته نرى أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالحلم وجعله سياج النبوة . فقال جل شأنه لنبيه الكريم (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) فهو مظهر الله على عباده ، والطريق المعبد لنجاح دعوة رسله وأنبيائه . وكفاه بذلك تعريفاً .

ويدعو الدين إلى أن يقتصد الشخص فى معيشته ، ويتوسط فى نفقته . فلا يقتر ولا يسرف . إتباعاً لأمر الله تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)

فالواجب إذاً استعمال الحد الوسط والتباعد عن طرفى الافراط والتفريط فى التصرف فى الأموال وهذا هو المعنى بالاقتصاد . فامساك المال يكون حيث يجب الامساك . وبذله حيث يجب البذل .

ومن ذلك قوله جل شأنه فى سياق مدح عباده الصالحين وبيان أوصافهم الممدوحة بما فيه حث على الاقتصاد ونهى عن الاسراف والتبذير والبخل والتقتير .

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً) .

أى إن من لايصرفون أكثر من حاجتهم . ولا يمنعون المال عن أنفسهم . بل يكون إنفاقهم وسطاً وفى حدود الاعتدال ، يدخلون — كما أخبر الله فى نهاية الآية — جنة النعيم .

وقد أباح الإسلام للإنسان الزينة والتمتع بالطيبات من الرزق بدون إسراف كما قال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِى لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

ونهى أيضاً عن الإسراف فى ذلك كما نهى عن كثرة الأكل والشرب بقوله تعالى (يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) .

وواضح تماماً أن عدم الإفراط فى الأكل والشرب تصح به الأبدان . وعدم الإسراف فيهما تقوى به الأجسام . فمن رغب عن تحصيل هذه الفائدة ، وأطاع النفس بالانغماس فى الشهوة . لاشك أنه عاص ويستحق أن يبعده الله من رحمته

بقوله جل شأنه : (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) .

ويلزمنا الدين بانجاز الوعد والوفاء بالعهد وذلك فى قوله تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) .

وبالمبادرة إلى فعل الخيرات ، وانتهاز الفرصة قبل فواتها . وذلك فى قوله تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) .

وذلك لأن الأنسان لا ينال الخير فى كل آونة . بل يجب أن يتربص لاقتناص فرصه . وقد نبه سبحانه وتعالى إلى فضل الذين يسارعون فى الخيرات . ونوه بذكر أخص أوصافهم التى امتازوا بها عن غيرهم فقال عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

وأمرنا ربنا بالسعى فى تحصيل الدنيا كتحصيل مايوصلنا

للآخرة بقوله تعالى : (وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

وذلك بأن لا ينسى الإنسان نفسه وحياته الدنيوية ، ويقتصر على الاشتغال بأمر الآخرة . بل يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، فيؤدى ما عليه من الحقوق نحو نفسه . ويسعى فى تدبير معاشه . وكافة لوازم حياته . وقد اتخذ بعض المغرضين الشطر الأول من هذه الآية الكريمة حجة لهم فى العبث . والانغماس فى الشهوات . وأظن أن متابعة تلاوة الآية للنهاية ، فيه الكفاية لبيان أمر الله للانسان بأن يكون فى دنياه محسنا إلى الخلق ، كما أحسن المولى إليه بصنوف الخير والبر . ونهيه عن أن يفسد فى الأرض بالإساءة إلى خلق الله وغيرها .

ومن الآداب الإسلامية . آداب المرء فى معاملة ومعاشرة الناس . وقد بين القرآن الكريم هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله واليك :

آداب الزيارة : أى أدب المرء فى زيارته لغيره ، واستئذانه فى ولوج غير بيته . مالم يكن البيت غير مسكون وفيه متاع للشخص ، فله أن يدخله بدون استئذان. وذلك يوضحه الله تعالى بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وظاهر أن النهى عن دخول بيوت الغير بدون استئذان جاء لحكمة لا تخفى على أحد . فمما لاجدال فيه أن النساء فى البيت يأمن دخول الأجنبى عليهن . فيكشفن عما يعد من عوراتهن . لهذا يعتبر دخول الغير للمنازل بدون استئذان . أمراً تأباه المروءة . فضلا عن أنه يعد تصرفاً فى ملك الغير بدون إذنه . وهو أيضاً ممنوع شرعاً وعقلا .

وقد أمر المولى القدير بتسليم الشخص على أهل البيت الذى يدخله بقوله جل شأنه : (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) ووصف التحية بأنها من عند الله وأنها مباركة وأنها طيبة للترغيب فيها . والحث على فعلها .

آداب التحية : وكذلك آداب التحية التى جاءت فى قوله تعالى (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا) . ومعلوم أن البدء بالتحية وحسن الرد يبعث المودة والمحبة بين الناس . وبالتالى يجلب رضاهم ومحبتهم لبعضهم فتتحد كلمتهم . وتتألف جامعتهم .

كما أن امتثال الغير أمر واجب . ولا يخالفه إلا كل مغرور بنفسه . جاهل بتقلبات الأيام . ولذلك يأمرنا الله تعالى به فى قوله : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَومٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

فالله جل شأنه ينهانا فى هذه الآية عن السخرية بالناس والاستخفاف بهم . لأنه ربما كان المسخور به عند الله خيراً من الساخر ، فيكون الأخير قد ظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى . كما ينهى عن أن يعيب أحد غيره أو يدعو شخص أخاه بلقب يكرهه . وهذا أدب كبير أدّب الله به عباده المؤمنين ليكون سبباً فى ألفتهم واتحادهم وارتباط قلوبهم .

ويرشد الدين إلى أدب الحديث . ومن مقتضاه ألا يرفع الشخص صوته على صوت محدثه ، إذا كان أعلا منه منزلة ، أو أرفع مقاماً ، أو أكبر سنا . كما أشار الله تعالى على المؤمنين باتباع ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

وكذلك تجب الملاطفة فى القول . والمجاملة فى الحديث ومجانبة الخشونة فيه . منعاً لإيغار الصدور وتولد الأحقاد . كما

جاء فى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .

إلى غير ذلك من التأدب بالآداب الفاضلة ، والأخلاق الكاملة . التى عنى الشارع بالحث عليها . لأن بها تحسن معاملة الإنسان لأهله ولأصدقائه وللناس أجمعين . وتكثر محبته لهم ، ورأفته بهم ، وشفقته عليهم . ويكفى الإنسان من التخلق بمحاسن الأخلاق فخراً ، أنه يحاكى رسول الله صلى الله عليه وسلم . الذى جمع أمهات الأخلاق ، فاستحق أن يقول له المولى عز وجل : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ثم قال صلى الله عليه وسلم : (حسن الخلق هو أن تصل من قطعك . وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك) وقال عليه الصلاة والسلام : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال أيضا : (أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة : تقوى الله . وحسن الخلق) وقال

صلى الله عليه وسلم: (إن الله اختار لكم الإسلام ديناً فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكمل إلا بهما) وروى أنه قد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أوصنى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اتق الله حيث كنت) قال : زدنى . قال : (أتبع السيئة الحسنة تمحها) قال زدنى . قال : (خالق الناس بخلق حسن) وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى المؤمنين أفضل إيمانا ؟ قال : (أحسنهم خلقا) .

وجاء أنه صلى الله عليه وسلم قال : (إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا . وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة أسوأكم أخلاقا . الثرثارون المتشدقون . المتفيهقون - المتكبرون -) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خير ما أعطى الرجل المؤمن خلق حسن وشر ما أعطى قلب سوء فى صورة حسنة) وجاء فى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنكم لا تسعون الناس بأموالكم . ولكن يسعهم منكم بسط الوجه ، وحسن الخلق)

وفى هذا المعنى قال المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال * فليسعد النطق إذا لم يسعد الحال

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم فى افتتاح الصلاة (اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت وأصرف عني سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت)

وقد نهى الإسلام عن الفسوق والعصيان سرا وعلانية بقول الله تعالى : (وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ . إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ)

ونبهنا الله تعالى بما ضربه لنا من الأمثال بالأمم السابقة ، إلى أن ضرر المعصية فى القلوب كضرر السموم فى الأبدان . وأن المصائب التي نزلت بالأمم الظالمة . والمهالك التى انصبت على رءوس الأقوام الطاغية ، وجميع الشرور التى حدثت فى الماضى وتحدث فى الحاضر والمستقبل . لا سبب لها إلا اقتراف الذنوب وارتكاب المعاصى .

فما الذى أخرج الأبوين - آدم وحواء - من الجنة دار النعيم واللذة والبهجة . إلى دار الآلام والمتاعب والأحزان والمصائب ؟

وما الذى نزل بابليس من ملكوت السماء إلى جحيم

الشقوة والبلاء ، وبدله بالقرب بعدا ، وبالاتصال لعنا وطردا ، وبالإيمان جحودا وكفرا ، وبجنة الخلد نارا تلظى ؟

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رءوس الجبال ؟

وما الذى سلط على عاد الريح العقيم . فكانت لا تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، حتى صاروا عبرة ومثلا للآخرين ؟

وما الذى أرسل على ثمود الصيحة . التى خلعت القلوب . وصدعت الأفئدة . وأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ؟

وما الذى رفع قرى قوم لوط حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم . ثم قلبها عليهم . وجعل عاليها سافلها . وأمطر عليها حجارة من سجيل . فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على غيرهم من الأمم ؟

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل . فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ؟

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات

حتى أصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ؟

وما الذى أغرق فرعون وقومه . ثم نجاه ببدنه ليكون آية لمن خلفه ؟

وما الذى خسف بقارون وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ؟

وما الذى بعث على بنى اسرائيل قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار . وقتلوا الرجال . ونهبوا الأموال . وسبوا النساء ؟

ما الذى بعث عليهم ألوان العذاب . من سب . وقتل ومسخ واغراق . وتخريب ديار . وظلم حكام . ثم أقسم الله آخر الأمر ليبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ؟

أليست معصية أولئك لربهم . ومخالفتهم لما جاءت به رسلهم . وعدم اعتدادهم بما شرع الله لهم . كان سببا لنزول الهلاك بهم . وغضب الله عليهم . حتى استأصل شأفتهم ، وطهر الأرض من رجسهم ؟

فمن الواجب أن نمتثل أوامره تعالى ، ونجتنب نواهيه .

ونخلص فى طاعتنا له . لنكون بذلك من عباد الله المتقين . التى أفاضت آيات القرآن الكريم فى بيان ما أعد لهم من الغوث العظيم . وما يترتب على تقواهم من التوفيق لصالح الأعمال وتكفير الذنوب والخطايا . مثل قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالله سبحانه وتعالى دعانا إلى التقوى كما سبق القول . وإلى التوسل اليه والتقرب له بالاعمال الصالحة وإنا لنبتهل ونضرع اليه سبحانه أن يرينا الحق حقاً فنتبعه ، ويرينا الباطل باطلا فنتجنبه . وأن يوفقنا للعمل بما علمنا ، ويهدينا صراطاً مستقيما .

وينهى الإسلام أيضا عن قتل النفس بغير حق . فقد قال الله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ .

كما حرم الزنا بقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾

والزنا هو أن يجامع الرجل من لاتحل له ، ويتصل بامرأة أجنبية عنه ، إتصالا جنسياً . وهو أمر أجمعت شرائع السماء ، وتتابعت وصايا الأنبياء ، من عهد آدم عليه السلام ،

إلى صفوة الخلق صلى الله عليه وسلم ، على أنه جريمة فاضحة ، تهدد المجتمع الأنسانى بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، وتنذره بشر مستطير ، وفوضى لا حدلها ، ولا يعلم مداها إلا الله تعالى . بل إن الفطرة الإنسانية تأباه ، وتجمح منه ، وتستقذره العقول ، بأجماع لا يشذ عنه إلا من انحط إلى دركة الحيوانية ، ونزل إلى أسفل سافلين .

ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم . الجامع لما تفرق فى جميع عصور التاريخ من مثل عليا . والمهيمن على كل الكتب السماوية الغابرة . جاء يدعو الناس جميعاً إلى محاربة هذه الخطيئة الفاحشة الممقوتة التى لاتغتفر . وعدها من أكبر الكبائر التى تستوجب لعنة الله ، وعذابه فى الدنيا والآخرة . فقال جلت حكمته (ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة وساء سبيلا) فسماه فاحشة توجب المقت . وتورث الفقر . وتقضى على الحياة والصحة والأخلاق والأموال والعمران قضاء مبرماً . وجاء النهى عن قربانها . لينهى عن فعلها بطريق أبلغ . وذلك بالبعد عن أسبابها . كالنظر إلى الأجنبية أو الخلوة بها ، وما إلى ذلك ليكون أبلغ فى الزجر عنها وأحكم فى البعد منها ، وتمنع

خاتمة هذه الآية الكريمة إتخاذه طريقاً فى الصلات الجنسية بين الذكر والأنثى بقولها (وساء سبيلا) لما يترتب عليه من المفاسد الخلقية . والأضرار الاجتماعية . والحط من الكرامة الإنسانية . لأن الأنسان ليس كالحيوان ينزو ذكره على أنثاه . بل له نظام خاص فى حياته لايتفق وجريمة الزنا . ولا يتسع المقام لشرحه هنا .

ولا فرق فى النهى عن الزنا فى نظر الأسلام بين الزنا العلنى والزنا السرى بالخليلات . لأنهما متساويان فى فحش الجريمة . ولذلك قال الله تعالى (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

وجريمة الزنا تعتبرها جميع الأمم فى مقدمة الجرائم الخطرة وتعدها فى أول قائمة المفاسد الخلقية . ومادة كبرى فى قاموس الرذائل المفسدة لنظام الحياة ، الدالة على موت شعور مقترفها ، وفقدان إحساسه ووجدانه . ولم تشذ منها أمة واحدة فى اعتبارها جريمة خطرة . ولذلك وضعت لها العقوبات الرادعة فى جميع قوانينها . وإن كانت تلك العقوبات قد اختلفت بالشدة والضعف لاعتبارات خاصة بكل أمة . ترجع فى أغلب الأحيان إلى يقظة إحساس تلك الأمة بالمحافظة على الفضيلة

والكرامة الأنسانية . والأمة الأسلامية من بين جميع الأمم أغلظت الحد على مقترف هذه الجريمة لما بيناه من أضرارها وجعلته رجماً وجلداً ليكون أبلغ فى الكشف عن مطاوعة الشهوات الجنسية . فقد قال الله تعالى : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فالعقوبة التى أعدتها الشريعة الاسلامية للزانى هى الجلد أى الضرب وقد اصطلح على أن يكون فوق الجلد مباشرة أو مع حائل ، بسوط من الجلد يوجع ولا يقتل ، ولايكون على الرأس أو الوجه أو فى موضع قاتل . ويكون متفرقاً على أجزاء الجسم لا فى مكان واحد . وقد رأينا معنى بليغاً فى أن يبدأ المولى القدير فى هذه الآية بالزانية فى قوله (الزانية والزانى) ذلك لأن الزنا فى الأغلب يكون من تعرض المرأة للرجل وإبداء زينتها له وإشارتها اليه . وماشاكل ذلك من المغريات ولهذا قدمها على الرجل . بعكس ماتراه فى غيرها من الجرائم كالسرقة مثلا . فإنه سبحانه وتعالى قدم السارق فى قوله .

(والسارق والسارقة) لأن السرقة أغلبها فى الرجال .

ويشدد الشارع الحكيم فى تنفيذ هذا الحد على وجهه من غير هوادة ولا تهاون ، فيقول جل شأنه (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ) . أى لايصدكم عن تنفيذ هذا الحد كما يجب ، مارأيتموه من الحزى والخجل ، مما يبعث الشفقة والرأفة . وذلك لشدة مايترتب على الزنا من المضار والأذى ، ولأن فى الإشفاق عليهما ، إفساد لدينهما ، ودين غيرهما ممن قد يتأثر بهما ، ويعمل عملهما . بل إن إقامة الحد — دون رحمة أو حنان — عامل قوى على استئصال الداء قبل شيوعه ، ومحاربة الوباء قبل ذيوعه .

ثم يريد الله جل وعلا ، أن يحرك الحمية فى المؤمنين . ليحملهم على ترك الهوادة فى إقامة هذا الحد . فيقول سبحانه (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

وإزاء مايقترفه الزانيان من أمر شنيع . تكاد تنهار معه سعادة الفرد والأسرة . يأمر الله بإظهار فضيحتهما ، وإعلانها للملأ . فيقول جل شأنه : (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ليكون فى شهودهم ، تشنيع بعملهما ، وتشهير

بفعلهما . وفى الوقوف على أمرهما ، ومعرفة جرمهما ، تنكيل بهما . لأن ألم الفضيحة أشد على النفس من ألم الضرب .

هكذا رأى الله سبحانه وتعالى أن يكون الدواء لمرض الزنا . وهو العليم بخلقه ، كما قال سبحانه : (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فلا يسوغ لعاقل أن يعترض على الطبيب فيما يصفه للمريض من الدواء بنظريات عقلية . بل يجب على المريض أن يستسلم للطبيب يعالج الداء بما يعلمه من الدواء . وإن خالف نظرياته العقلية .

وبعد أن بيّن الله حكم الزانية والزانى . بيّن أن من يرتكب الزنا لايكون من المؤمنين بالله ورسوله . بل يعد من المشركين لاتصافه بهذه الصفة الخبيثة الدنيئة . فقال سبحانه وتعالى فى ذلك : (الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) وفى هذا أيضاً نرى النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يزنى الزانى وهو مؤمن) .

فالآية والحديث تطابقا على أن مرتكب هذه الجريمة لا يأتيها وعنده ذرة من الإيمان .

ولهذا كان الزنا يسلب الإيمان ، فوق مايحدثه من المضار الأخرى التى تلحق الجسم والنفس والمال ، وتتعداها إلى الذرية والأسرة والأمة .

وفى الكلام عن الزنا ، نجد أن مثله فى الأحكام السابقة — اللواط — بل إن هذا الأخير أقبح من الزنا عقلا ، بحيث لولم يرد النهى عنه من الشرع ، لكان العقل السليم يحكم بقبحه .

وظاهر أنه لايشتهى هذا العمل ، ويستسيغ ذلك الفعل . إلا كل ذى طبع فاسد ، وعقل كاسد ، ومرض فى طبيعته ، وخلل فى سليقته ، وسوء فى بيئته ، وإنحطاط فى تربيته . ولذلك صرح العلماء قاطبة ، واتفقوا كافة ، على أنه لا يوجد فى الجنة .

والحكمة فى تحريمه . وفى أنه أقبح من الزنا . ظاهرة لقذارة محله . فضلا عن إفساده لنفوس الأمة . إذ يتلهى به الأعزب عن الزواج . وحينئذ تتعطل طائفة من النساء . عن أن تجد لها زوجا يعفها . وإن كان الشخص متزوجا تلهى به عن زوجته . فيدفعها للتهاون فى عرضها . ويتبع ذلك بلا شك ، نقص المواليد . وضياع الأنساب .

هذا من جهة وهى الخاصة بالفاعلى ، ومن جهـــة أخرى . فان هذه الفاحشة ، تذهب بالشهامة والرجولة من نفس المفعول به . كما أن فيها إبطال لحكمة الله تعالى ، ومعارضة لتدبيره سبحانه . حيث جعل جل شأنه الفاعلية للذكر . والمفعولية للأنثى .

وبديهى أننا وقد رأينا فيما تقدم . كيف أن كلا من الزنا واللواط . محرم فى جميع الشرائع . وكافة الأديان . وعلمنا أن تفشيهما فى الأمـــة من الخطورة بمكان . وجب شرعا ، وعقلا ، وطبا . أن نجتنب كل هذا . ونتقى شر ذلك . ونسير على هدى الشريعة الإسلامية . ونتبع الأوامر الإلهية . فيما عُنِيَتْ به من تشريع الزواج ، وما رسمته من سبيل العلاج ، الذى يأمر غـــير القادر عليـــه بالصوم والاستعفاف . (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا . حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) .

ويتابع الدين فى نصح الإنسان . فينهاه عن الكبر عملا بقول الله عز وجل : (وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طَوْلاً) .

فمن المعلوم أن العظمة لله وحده تصديقـــا لقوله تعالى :

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) . فلا ينبغي أن ينتحل الإنسان ذلك لنفسه لأنه عبد عاجز مخلوق من ماء مهين . كما حكى الله سبحانه أمر خلقته فقال : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا . إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ . فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) وما أحسن ما قاله الحسن البصري في صفة ابن آدم : مسكين ابن آدم . محتوم الأجل ، مكتوم الأمل ، مستور العلل ، أسير جوعة ، صريع شبعة ، تُنْتِنُه العرقة ، وتؤذيه البقة ، وتميته الشرقة .

وما أعظم قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن يتكبر ، وقد خلق من موضع البول مرتين ، يا ابن آدم خلقت من نطفة مزرة ، وستكون جيفة قذرة ، وأنت الآن تحمل العذرة . فكيف تتكبر ؟

وأفحش أنواع الكبر وأقبحها التكبر على الله سبحانه وتعالى كما فعل فرعون بادعائه الربوبيه ، وإستنكافه أن يكون عبداً لله . وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنه ذلك في القرآن الكريم بقوله :

(فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) وقوله : (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) وقوله : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي . فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا . لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى . وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) . ومعروف لنا جميعا ماحاق بفرعون ويحيق بمن على شاكلته بسبب الكبر . وقد بين ذلك المولى عز وجل فقال : (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) وقال جل شأنه : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخَرِينَ) وقال سبحانه : (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ).

ومثل الكبر على الله فى القبح واستتباع العذاب المهين . التكبر على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومخالفة ما جاء به تكبرا وعنادا وجهلا ، كالذى حدث من الكفار أثناء قيامه بدعوته ، وأشارت إليه آيات القرآن الكريم ، وبين الله عز وجل ما نزل بهم بسبب ذلك من النكال الشديد .

ويليهما كبر الإنسان على أخيه الإنسان ، واستعظامه لنفسه ، واحتقاره لغيره ، واعتقاده أن له منزلة لا يدانيه فيها سواه . مما يدعو إلى قطع صلة المتكبر بالناس ، ويُغير صدورهم عليه ، ويثير حقدهم نحوه ، ويُهيج بغضهم له ، ويستمطر غضبهم عليه . (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) فضلا عن أن هذا النوع من الكبر كسابقيه . يعد عند الله إثماً عظيماً ، ويستوجب من المولى عقابا أليما ، لأن التكبر على المخلوق يدعو إلى التكبر على الخالق مثل ما حدث من إبليس ـ لعنه الله ـ حينما رفض السجود لسيدنا آدم عليه السلام ، وتكبر عليه بقوله لله عز وجل : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

فلا شك أن فى تكبره هذا على سيدنا آدم ، تكبرا على الله سبحانه وتعالى ، بمخالفة أمره ، وعدم الإذعان لحكمه ، مما استحق عليه الطرد من رحمة الله ، والحرمان من دخول الجنة ، وإعداد نار جهنم له ولمن تبعه ، كما قال له الله تبارك وتعالى : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) .

ومن هذا نرى أن الله تعالى قد حرم الكبر بجميع أنواعه . ولعن من إتصف به ، وطرده من رحمته . كما قال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) . وأعد للمتكبر فى الآخرة عذاب جهنم فقال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

ولهذا أيضا نرى أن الإنسان وقد عرف أن الكبر هكذا أمره . وفطن إلى أن هذا ضرره . وجب عليه أن يتجنب أسبابه ، ويستعيض عنه بالتواضع واللين . فالتواضع عنوان الشرف ، ودليل المروءة ، ومظهر الشهامة ، ورسول النعمة ، ومفتاح الجنة . (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

على أن حكمة الدين تدعو إلى أن الإنسان فى إعراضه عن الكبر ، وإقباله على التواضع . يجب أن لا يكون متهاونا فى كرامته ، مضيعا لعزته التى كتبها الله له (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) . بل يجب أن يتخذ له طريقا وسطا .

وينهى الإسلام أيضاً عن تعاطى الخمور ولعب القمار ، يقول الله عز وجل : (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ . وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) .

وتحريم الخمر ظاهر ولا شك من مدلول هذه الآية الكريمة ، لما فيها من ذهاب العقل ، وضياع المال ، وتلف الصحة ، وفساد الدين ، وضياع الإيمان . وبالجملة إتباع سبيل الشيطان .

وذهاب الخمر بالعقل يدل عليه ما يلاحظ على شاربها إذا ما أخذته النشوة من الاندفاع فى الحركات الصبيانية ، والشهوات الحيوانية ، وتصوره الهواجس والخيالات ، وتسفهه فى القول

دون إدراك .

وضياعها للمال واضح من إنفاق شاربها ، كسبه الذى يسعى فى تحصيله ، لجلب قوته به ، وقيام معاشه عليه . وكم نرى ونسمع عما يعترى أولئك الذين يتعاطون الخمر من الفقر والفاقة . وما أتعسهم وأشقاهم بتقلبهم فى الحياة بين شعورهم بما يسمونه اللذة فى شربها يوماً . وإحساسهم بما تسومهم به الحاجة من الذلة أياماً .

وفى الكلام على إتلاف الخمر للصحة فإننا نعرض لرأى أحد حضرات الأطباء فى ذلك . ليكون للقول قيمته ، وللدليل حجته . فقد قال بأن الكحول مادة ضارة بالجسم البشرى والحيوانى ، ومن الصعب جداً شربه مركزاً — غير مخلوط بالماء — للألم والضرر الذى يحدثهما . وإضافة الماء إليه لا تنزع منه هذه المضرة . بل تخففها وتقسطها فقط . ولكنها لا تنعدم مطلقاً مهما أضيف إليه من ماء أو شراب . وقد يشعر شارب الخمر بحرارة فى الفم قد تصل إلى درجة الإحتراق ، وإذا مكث السائل بعض الوقت يتجمد الزلال على سطح الفم ، ويحتقن الغشاء المخاطى ، ويتزايد اللعاب كما يتزايد العصير

المعدى ، ويسرع النبض ، وهذه نتيجة إنعكاسية . ولكن حينما يبدأ إمتصاص الخمر يقل اللعاب . كما أن له تأثيراً موضعياً مخدراً . ويصل إلى الدم فى ظرف خمس دقائق من تعاطيه ، ويصل إلى الدرجة القصوى بعد ساعة ونصف . ومن الإحصائيات يستدل جيداً على أن الذين لا يشربون الخمر تطول حياتهم أكثر من المدمنين عليه ، وأن الأولين أقل عرضة للمرض من الأخيرين ، الذين يتعرضون للأمراض الخطيرة .

إفساد الخمر للدين

ولا يقتصر أثر الخمر وضررها على ماقدمناه من الوجهة الأدبية والإقتصادية والصحية ؛ بل يتعداها إلى الناحية الدينية . وعمله فى إفساد العقيدة ، وإضعاف الإيمان ، جد خطير . وليس أدل على ذلك من أنها تسلك بشاربها طريق الشيطان . وشتان بين سبيل الهدى ، وطريق الهوى . فإن شارب الخمر حين تأخذه النشوة ، ويكبو هذه الكبوة ، تهون عليه الذنوب ، ولا يتورع عن ارتكاب كل المعاصى . ولهذا الأمر مظهره فى الحياة الإجتماعية ، إذ نجد أن السفلة والأوغاد الذين يهددون الأمن ، ويمزقون ستار الطمأنينة ، يعمدون إلى احتساء ذلك السم

الزعاف ، إذا ما أرادوا إرتكاب الجرائم ، ليحفز نفوسهم الشريرة على عدم التهيب بما يصنعونه .

ويكفينا هذا الذى بيناه من بعض السيئات التى تجرها الخمور على الجنس البشرى . والأضرار التى سجلها الناس عليها من أقدم العصور ، ولم يسجلوا مثلها لمنكر من المنكرات الأخرى . دليلا على أن الخمر جماع كل شر . وأصل كل خبيث . وأنه يكفى لتحريمها أن نرى كيف أنها تعطل أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان وهى العقل . وفى هذا نجد شاعراً يقول :

أترك الخمرة إن كنت فتى ✡ كيف يسعى فى جنون من عقل

وما أظرف ماقاله فيها شاعر آخر :

أرى الكأس تذهب عقل الفتى ✡ فيذهل عن كل مستمع

وقالوا سرور فقلت السرو ✡ ر بأن تتركونى وعقلى معى

على أنه رغم أن ضرر الخمر ليس بالأمر الخفى ، ولا المشكوك فيه . فإننا نرى بعض الناس يتجاهلونه ، ويعتقدون أن فى الخمر فوائد . ونحن نرد على ذلك القول فيما يلى . ونفند هذه المزاعم ، وندحض إدعاءهم بالدليل الذى لا يقبل الشك من بين يديه ولا من خلفه .

أ ـ الاعتقاد بأن الخمر تدفئ الجسم :

هذا الاعتقاد لا يعدو كونه وهماً وغروراً من السكير عندما يشعر ببريق عينيه، ويحس بإحمرار خديه. لأن السكحول عند دخوله المعدة يؤثر على الأعصاب، فيسخن الدم ويهيج وتمتلىء العروق بهذا الدم الساخن، الذى لا تلبث حرارته طويلا حتى تنفذ إلى مسام الجلد، وتتعداها إلى الخارج. فكأن الأمر على عكس ما يتصورونه لأن الجسم يفقد شيئا من حرارته الطبيعية الاعتيادية. وما السخونة التى يشعرون بها إلا إحساسهم بحرارة الجسم الداخلية وهى تتسرب إلى الخارج.

ب ـ القول بأن الخمر تعطى قوة ونشاطا، وتبعث جرأة وإقداما:

هذا القول لا يقل وهما عن سابقه، فماهذه القوة وذلك الإقدام وما إليهما، إلا تصويرهم لفعل الخمر بعقل شاربها، وسيطرتها على شعوره ووجدانه، مما يفقده عزمه وإرادته، ويجعله آلة تحركها الخمر، وتدفعها على خوض غمار الهلاك. وما من عاقل يقول بأن ما يأتيه السكير وهو فاقد الرشد والإدراك من إرتكاب ما قد يودى بحياته، أو يورده موارد الهلاك، يعد قوة وإقداما.

هـ - الزعم بأن الخمر تبعث فى الجسم الصحة الجيدة :

وهنا أيضا يتمثل الوهم بأجلى معانيه . ويبدو جليا أن أنصار الخمر متعثرون فى فهمهم لحقيقتها ، مخطئون فى إعتقادهم بفائدتها . وإلا فكيف تتقبل قولهم بأن المدمنين يعمرون ويتمتعون بالصحة الجيدة . ويستدلون على ذلك ببعض أفراد منهم؟

لاشك أن المرء يضحك أسفا من هـذا القول ، ويرى صاحبه كمثل ذلك الذى ينكر فظائع الحرب وويلاتها . لأنه رأى جنديا معمرا رغم محاربته فى وقائع عدة ، ونجاته من الحروب رغم مافيها من هول وشدة . فهذه الحال لا فرق بينها وبين حال الخمر ، التى تفتك بالألوف من بنى الإنسان ، وإن يكن قد نجا من ضررها نفر قليل .

ى - وأخيرا نسمع عن قولهم بأن الخمر تذهب بالأفكار المحزنة وتنسى الانسان آلام الحياة :

وهذا القول ظاهر الخطأ والفساد . لأنه لا ينكر أحد أن المجنون ، المسلوب العقل والإرادة ، لايستطيع أن يفكر ، ولا يقوى على التعقل ، وقد قيل فى هذا - ما لذة العيش إلا للمجانين - والإنسان مطلق الحرية فى أن يختار فى حياته

أحد أمرين :

إما أن يرضى بقضاء الله ، ويعمل بعقله وتفكيره على مكافحة الأيام ومغالبة الصعاب . وإما أن يبيع عقله بكاسات من الخمر تذهب بلبه ، وتفقده رشده ، وتجعله أضحوكة وسخرية بين الناس .

ومفهوم تماما أن أفضل ما فى الإنسان عقله وأن بالعقل وحده يفضل الانسان باقى المخلوقات . كما قال تعالى : (لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) وفى الأثر الشريف : (أول ما خلق الله تعالى العقل . ثم قال له أقبل فأقبل . ثم قال له أدبر فأدبر . ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك أثيب ، وبك أعاقب) .

ونختتم حديثنا عن الخمر بما أشتهر به أصحابها من عدم الوفاء ، وقلة الإخاء . فهم يدعون الصداقة ما استغنى الشخص حتى يفتقر ، وما عوفى حتى ينكب ، وما رأوه حتى يفقدوه . ومن أحسن ما قيل فيهم :

إخاؤهم مادارت الكأس بينهم ✡ وكلهم رث الحبال سئوم
إذا جئتهم حيوك ألفاً وحبوا ✡ وإن غبت عنهم ساعة فذميم

ومثل الخمر فى التحريم — الحشيش وسائر المواد المخدرة — لأنها تفعل بآكلها ومدخنها ومستعملها بأية وسيلة ، فعمل الخمر . فتنتقص العقول ، وتجر إلى المفاسد . ويكفى لبيان أضرارها ، أن نسمع عن تسميتها بالسموم . مما يدخلها ضمن الخبائث التى حرمها الله تعالى بقوله : (وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

ولا نرى بدأ من الإشارة إلى سماحة الإسلام فى هذا الأمر ، فقد أبت إلا أن تعقب على تحريم المحرمات ، بجواز إستعمالها فى حالة الاضطرار . عملا بقول الله تعالى : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) ويكون ذلك الاضطرار فى حالتين :

الاولى : — ضرورة التغذى إذا لم يجد الشخص شيئاً حلالا يتغذى به ، وذلك كقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

فالله تعالى أحل أكل الطعام الطيب الطاهر . وحرم أكل

الخبيث منـــه وهو :—

١ — الميتة : أى التي تموت من غير تذكية شرعيـة ، سواء كان موتها بخنق أو بضرب أو بسقوطها من أعلى إلى أسفل . وقد استثنى الله من ذلك ميتة البحر بقوله تعالى فى آية أخرى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾

٢ — الدم : وهو الدم المسفوح .

٣ — لحم الخنزير : سواء ذكى أولم يذك .

٤ — وما أهل به لغير الله : أى ذكر عليه اسم غير الله .

وبعد أن بين ذلك عقب عليه بأن من اضطر لأكل أحد هذه المحرمات ، بأن خاف هلاك نفســـه ، ولم يجد سواه ليسد به رمقه ، فلا حرج عليه . بشرط ألا يتناول منه إلا مايدفع به الضرورة .

الثانية : — طلب الشفاء إذا لم يوجد بين الأدوية والعقاقير مايقوم مقام المحرم فى التداوى .

ويشترط فى هذه الحالة عدالة الطبيب الذى يصف دواء مما حرم الله ، كأن يكون حسن السمعة ، ولم يعهد عليه الفسوق والعصيان ، ولم يعرف عنه الاستهتار بأحكام الدين .

وقد حرم الإسلام أيضا الربا وأنذر الذين يتعاملون به بالخراب والمحق . فقال تعالى : (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) وهو فى تحريمه هذا يتحد مع الشرائع السماوية ، التى أجمعت على تحريم الربا بجميع أنواعه ، وعدته من أكبر الكبائر ، وأعظمها إثما ، وأشدها خطرا . لأنه يفضى إلى انقطاع المعروف والإحسان ، ويولّد بين الناس الأحقاد والأضغان . وتتعدد أنواعه حسب الحيل التى يعمد اليها المرابون ، حتى لا يقعوا تحت طائلة العقاب . وهم غافلون عما قاله الله فيهم : (يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) فكل قرض جر منفعة فهو ربا . لا فرق بين فوائد فاحشة وفوائد قليلة ، وبين فوائد إيداع وفوائد استقراض . لأن الإسلام وهو دين تعاون . فلا أقل من أن يجد من يقع فى براثن الحاجة من المسلمين ، من يعينه من إخوانه القادرين . والقرآن الكريم يفيض فى بيان تحريم جميع أنواع الربا ، ويقضى بأن المتعامل به ليس من المؤمنين فى شىء ، بل ينذره بحرب من الله ورسوله إن لم ينته عن الربا ، وعن أكل أموال الناس بالباطل . كما قالى الله سبحانه وتعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ) ولا جدال فى أن من عرّض نفسه لحرب الله ورسوله ، فلا فلاح له فى الدنيا، ولا نجاح له فى الآخرة ، لأنه بعيد عن رحمة الله .

ومما ينهى عنه الإسلام التجسس والغيبة . وقد أظهر الله بشاعتهما ، وبين شناعتهما فى قوله تعالى : (وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) فقد شبههما سبحانه بأكل لحم الإنسان ، وهو أمر يعافه كل شخص . بل جعل لحمه ميتا ، لتعظم فظاعته ، وتزيد كراهيته .

وكذلك النميمة وهى السعى بالإفساد بين الناس . ولذلك يعتبرها الله من حقوق العباد . ولا يغتفرها إلا إذا صدرت من أصحابها المسامحة والغفران . وقد جاء النهى عنها فى قوله تعالى : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) والنهى عن إطاعة المتصف بها . أبلغ فى التحذير من إقترافها .

ومن ذلك أيضا النهى عن الكذب فى قوله تعالى : (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) ويكفى لبيان قبح الكذب ، أن تكون نتيجته عدم الفلاح ، وسوء النجاح .

وكذلك النهى عن الحلف إلا عند الحاجة ، كقوله تعالى : (وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ) لأن الحلف يقلل مهابة الإنسان . ويضعف ثقة الناس به . وإذا دعت الحاجة إلى الحلف ، فيجب أن نعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) . فالحلف بغير الله منهى عنه شرعاً .

ويجب على من يحلف عن أمر من الأمور . أن يمضى فى تنفيذه إن كان خيرا . وإن كان شرا يرجع عنه ، ويكفر عن يمينه .

ويخير الحانث فى التكفير عن اليمين بين وجوه ثلاثة : الإطعام ، أو الكسوة ، أو العتق . والكل يعجز الآن عن الثالثة لأنه لا رق ولا عتق . ولذا يكون التخيير بين إطعام

عشرة مساكين أو كسوتهم — ويقدر ذلك بنسبه نفقة الشخص في بيته — وللعاجز عن ذلك كله أن يكفر عن يمينه بصيام ثلاثة أيام . ويستحب أن تكون متتابعة .

وكم يكون الإنسان محسناً إلى نفسه متى تجنب كل هذا وأعرض عن الحلف . وكان الصدق في قوله هو الداعي لثقة الناس به . لأن اليمين نوع من التعاقد يراد به الإقناع . فإذا أخل المقسم وحنث في يمينه فهو خائن لشرفه وعهده معاً .

ويرشد الله تعالى في قوله : (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ) إلى أن من الأيمان اللغو والمنعقدة . والأخيرة هي التي بيناها وأوضحنا حكمها فيما سبق . أما اللغو فهو مالم تنعقد عليه النية . مثل ماجرت به العادة من قول الشخص في أثناء حديثه : لا والله . لا بالله . مما يجرى على الألسنة عادة .

وقد نهى الله عن الظن وهو أن يتهم الناس بعضهم بعضاً ، من غير دليل سوى إساءة الظن . فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) والخيانة مما ينهى الله عنه أيضاً بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)
وقد بينا تفصيل هذا فى الكلام على أمر الدين بأداء الأمانة (ص ٢٨)

هذا ما رأينا الإتيان به مما ينهى عنه الإسلام. وحكمة ذلك واضحة فى إبعاد الضرر عن الهيئة الاجتماعية، ودفع السوء عن النفس أو المال أو العرض أو العقل.

على أن من تمعن فى هذا الدين، وأعطاه حقه من التصفح والفهم، يجد - فوق ما تقدم - أنه والعلم متآخيان. ودليل ذلك تكليفه لكل مسلم ومسلمة أن يبذلا جهدهما فى ترقية نفسيهما كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة). ولا يكون طلب العلم والمعرفة بين المسلمين فقط، وفى مملكة واحدة فحسب، بل فى أقاصى الأرض. فقد جاء فى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (أطلبوا العلم ولو بالصين). وفى بيان فضل العلم وتحبيبه إلى المسلمين ليطلبوه، نرى القرآن الكريم يقول: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

وكذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ضالة المؤمن العلم) ويقول عليه الصلاة والسلام: (إن

العلماء ورثة الأنبياء) وجاء في حديث له صلى الله عليه وسلم :
(فضل العلم أحب إليّ من فضل العبادة . وخير دينكم الورع)

فأذا رأينا أن الدين دعى المسلمين إلى طلب العلم ، وجب أن نعلم بأنه لم يبغ من ذلك العلم ،إلا أن يكون وسيلة إلى معرفة آداب الإسلام وأحكامه ، التي تتمثل في أوامره ونواهيه . وقد بينا ذلك فيما سبق ، وعرفنا أنه يكون في رياضة النفوس ، وتأديب الجوارح ، وطهارة الأسرار ، وحفظ الحدود ، وقمع الشهوات ، وإجتناب الشبهات ، وتجريد الطاعات ، والمسارعة إلى الخيرات .

أما أن يؤدى بنا العلم إلى أدب القردة ، وأن نفهم معناه في استباحة الحرمات ، وهدم الحدود . فخير منه جهل يصون الحرمات ، ويحفظ الحدود .

ونحن الآن - كما قال عبد الله بن المبارك رضى الله عنه - أحوج إلى قليل من الأدب ، منا إلى كثير من العلم . فقد كثر بيننا العلم إلى درجة ملموسة ، وقل الأدب إلى درجة محسوسة .

ونظرة واحدة إلى الأمس القريب ، تظهر لنا مبلغ ما أردتنا

فيه علومنا الأوروبية من حمأة ، وما أسقطتنا فيه آدابنا الغربية من وهدة . وإلا فما جوابك إذا ماسئلت :

أين احترام الولد لأبيه ؟

وإني لأعرف أولاداً ينكرون آباءهم ! .

وأين إجلال الصغير لمن يكبره سناً ومرتبة ؟

ونحن لانرى بيننا إلا هدماً لتوازن الطبقات !

وأين خشية التلميذ أستاذه ؟

وأنت تراهما متجاورين فى دور الخلاعة واللهو !

وأين حرص الزوجة على رضاء زوجها وعلى ماله ؟

والكل يعلم أنها إذا أنجبت تنكرت لزوجها

وبددت ماله هباء !

وأين حرمة الجوار ؟

والجوار اليوم علة الإيذاء فى كل ناحية !

وأين مواثيق الصداقة ؟

وهى الآن خدعة وزيف !

وأين الإخلاص ؟

وقد طوت صفحته النفعية القائمة !

وأين المبـــادىء ؟

وهى اليوم ثياب ترتدى ألوانها عند الحاجة !

وأين العهـــود ؟

وهى اليوم لا تتم إلا وقد بيت لها المتعاهدان النكث

فى سرهما إيجاباً وقبولا !

وأين الحق ؟

وهو محتبس فى الحناجر ولا يقوى على الجهر به إلا الأسد !

بـــل أين الدين ؟

وهو اليوم فن من فنون العيش ووسيلة من

وســـائل الارتزاق !

وأخيراً أين الإنسان ؟

والناس عند حد قول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـــوّت إنسـان فكدت أطير

ألا نرى جميعاً كيف يكيد الإنسان للإنسان ، وكيف يوقع المسلم بالمسلم ، وكيف تعدينا حدود الله ، ونسينا قول رسول الله صلى الله عليه وســـلم : (كلُّ المسلم على المسلم

حرام : دمه ، وماله ، وعرضه) .

أما دمه ، فتجيبنا عنه إحصائيات الأمن العام ! .

وأما ماله ، فأمامنا المرابون من الأنسباء وذوى القربى !

وأما عرضه ، فإنى أستحى أن أقول اسألوا الجار عن عرض جاره ! واسألوا الضيف عن عرض مضيفه ! واسألوا القريب عن عرض قريبه ! بل أعوذ بالله إذا قلت اسألوا الأخ الشقيق عن عرض أخيه وشقيقه ! ! .

ونتساءل بعد هذا ، إلى متى نطبق الجفن على القذى ؟ ونلحم الجرح على القيح . ونكتفي بأن نظهر بثوب خارجى لا يكاد يخفى ماتحته من الرقع !

الحق اننا فى حاجة إلى أن نلقن الناشىء فى مدرسته ، أو مصنعه أو حقله ، حقيقة الإسلام . ونبين له أنه كعقيدة هادم للشرك ، باعث بالتوحيد . وأنه كعبادة ، يجمع فضائل تهذب النفس ، وتزكو بالروح إلى أسمى المراتب . وأن تعاليمه هى السياسة الخالدة التى تستند إلى الصراحة والحق ، ولا تعرف الملق والدهان ، والكذب والبهتان . وأنه إجتماعى ، يهب الفرد سعادة الدارين ، ويهديه طريق الحُسْنيين . ثم هو بكل هذا

يؤسس الأسرة والأمة ، على قواعد الخلق الكامل .

هذا هو العلم النافع ، وذلك هو التعليم المنتج . ينشأ به الشاب المسلم ، وقد عرف دينه ، كما يعرف اليوم الحب . ويتخذه دستوراً فى سائر أدوار حياته . فلا يعرف الفتنة ، ولا يصبو إلى الجريمة ، ولا يتوق إلى الفسوق ، ولا تغريه وسائل الإثم بالمعصية .

هذه ملاحظات عامة ، على أن الإسلام دين خلق واجتماع ، نسوقها تمهيداً لما سنتناوله فيما بعد .

على أننا نرى الإسلام — فوق ماتقدم — يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى وتوحيده (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) وإلى تفرده جل شأنه بالعبادة وحده لاشريك له (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) . وإلى كيفية عبادته المنطوية على تعظيمه وأداء الشكر له على نعمه التى لاتحصى . فضلا عما فى العبادة من الأسرار والحكم والفوائد والمنافع .

وطريقته فى تبيان ذلك هى النظر بأمعان فيما خلق الله (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا

وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) وتتدبر قوله تعالى : (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

فالطريق إلى معرفة الله تعالى ، هي النظر في ملكوت السموات والأرض ، والتأمل في عجيب خلق الله ، والتدبر في هذا الكون العظيم . ليصل الناس إلى الخالق ، من طريق فهم المخلوق . وليعرف الناس جلال الصانع ، من تقديرهم لما صنع . فإن الله تعالى إن خفيت عن العقول حقيقته ، فقد تجلت للقلوب قدرته في صنعته . وإن غابت عن الأبصار ذاته ، فقد بانت للبصائر آثاره وصفاته في خليقته . وهو سبحانه وإن لم تدركه الحواس ، فقد استشعره الإحساس ، ولمست نعمه أفئدة الناس . (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

أبان الإسلام بكثير من أحكامه أن غايته هى تحقيق مصالح الناس، ورفع الضرر عنهم. وأن مقصوده إقامة العدل بينهم، ومنع عدوان بعضهم على بعض. بقول الله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) وكقوله سبحانه: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ). بل إن العبادات نفسها قرن التكليف بها، بما يدل على أن المقصود منها إصلاح حال الناس. كما قال تعالى فى حكمة الصلاة: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وفى الصيام: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وفى الزكاة: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وفى الحج: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)

وجاء القرآن الكريم فى كثير من آياته بالسياسة العادلة، التى ترمى إلى تنظيم الشئون العامة للدولة:

ففى نظام الحكم : قرر العدل فى قوله : (وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) . والشورى فى قوله : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) . والمساواة فى قوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) .

وفى الضرب على أيدى المجرمين : — حدد عقوبات لخمس فئات :

ا — الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً .

ب — الذين يقتلون النفس بغير حق .

ح — الذين يرمون المحصنات الغافلات .

د — الزانية والزانى .

هـ — السارق والسارقة .

وأرشد بالنسبة لسائر الجرائم ، أن تكون العقوبة على قدر الجريمة . فقال جل شأنه : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) وقال سبحانه : (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) .

وفى المعاملات : — أحل البيع والإجارة والرهن وغيرها من عقود المعاملات ، بشرط أن تتم بالتراضى . فقال عز شأنه . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ

بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ).

وشرع القرض بأن يأخذ المعسر من الموسر ما يحتاجه من المال إلى أجل مسمى ، ودعا إلى كتابة الدين . فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ).

وفى النظام المالي :— فرض فى الأموال وعلى بعض الأنفس قدراً لسد نفقات المنافع العامة ، ومعونة المعوزين . فقال سبحانه : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) . وسنأتى على بيان ذلك فى الكلام على الزكاة .

وفى السياسة الخارجية :— أجمل علاقة المسلمين بغيرهم ، فى قوله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

نرى أنه يجمل بنا فى هذا المقام ، أن نأتى بمقارنة إجمالية ، بين الدين الإسلامى ، وبين الأديان السابقة عليه . للتدليل على أبدية هذا الدين ، التى لا تحتاج إلى تدليل . ولنوضح فى جلاء بأن الشريعة الإسلامية — وهى خاتمة الشرائع السماوية — جاءت تامة ، ووافقت الناس عامة . ملائمة للوقت الذى شرعت فيه ، ومنطبقة على العصور التى تليه . ولا غرو فقد سمّا على بزوغ شمس الحضارة الإسلامية أربعة عشر قرنا ، ولم تتصادم أحكامها مع بدهيات العقل . فلم نر أن القرآن حرم شيئاً ينفع المجتمع ، ولم تتناقض نصوصه مع نظريات العلم الحديث . بل امتازت تكاليفه بالسهولة واليسر ، كما جاء فى قول الله تعالى : (مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بعثت بالحنفية السمحة) .

الدين يسر

وإتماماً للفائدة ، نشير هنا إلى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن ، حتى لا ندع محلا للشك فى سماحة الإسلام .

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الدين يسر . ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . فسددوا « أى إلزموا الصواب فى القول والعمل » وقاربوا « أى توسطوا بين الإفراط والتفريط » وأبشروا « بالثواب العظيم وإن قل العمل » واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة) بمعنى إنتهزوا أوقات نشاطكم فافعلوا فيها عبادتكم . ليكون إقبالكم على ربكم عظيما . ويكون ثوابكم من ربكم أعظم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره التشديد فى العبادة — وقد روى البخارى أن أنس رضى الله عنهما قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين ، فقال : « ما هذا الحبل ؟ » فقالوا : هذا حبل لزينب — أم المؤمنين — فإذا فترت تعلقت . فقال عليه الصلاة والسلام : (لا . حلوه . ليصل أحدكم نشاطه . فإذا فتر فليقعد) .

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كانت عندى امرأة من بني أسد ، فدخل علىّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « من هذه ؟ » قلت : فلانه . لا تنام الليل تذكر من صلاتها . فقال عليه الصلاة والسلام : (مَهْ عليكم

ما تطيقون من الأعمال فإن الله لا عل حتى عملوا)
والمعنى لا يقطع الله ثوابه عمن أقبل عليه . فمن أعرض عن
مولاه ومل العمل حرم الثواب . ولما كان الملل نتيجة مباشرة
للتشديد فى العبادة . نهى المربى الحكيم نبينا صلى الله عليه
وسلم عن ذلك التشديد ، حتى لا يأتى الملل ، ولا يحرم المؤمن من
الثواب . وأمر بما تسهل المداومة عليه من الأعمال ، ويمكن
تحمله ، وبيّن أنه محبوب لله ولو كان قليلا . فقال : (إن أحب
العمل إلى الله أدومه وإن قل) لأن القليل الدائم على توالى
الأيام يربو على الكثير المنقطع . ويكون صاحبه مقبلا على ربه
طول حياته فيربح الثواب الجزيل .

ولما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن ابن عمرو يقوم الليل
ويصوم النهار قال له : « هل تفعل ذلك ؟ » قال : نعم — قال :
(إذا فعلت ذلك هجمت عينك « أى غارت وضعفت من كثرة
السهر » ونفهت نفسك « أى كلّت وتعبت » وإن لنفسك
عليك حقا . ولأهلك عليك حقا . فصم وأفطر وقم
ونم) . وقال عليه الصلاة والسلام : (رفع عن أمتى الخطأ
والنسيان . وما استكرهوا عليه) وذلك كله من أكبر

مظاهر التيسير فى الإسلام الحنيف . وقد أمر الله تعالى أيضاً بالتيسير فى المعاملات . فأمر صاحب الدين أن يُنْظِرَ مدينه إن كان معسراً ، وأن يمهله إلى أن يبدل الله عسره يسراً . ثم حثه على أن يتنازل عما له من الدين إذا كان من فضائل أمواله ابتغاء التصدق به ، لما وراء هذا التنازل من الخير له . فقال جل شأنه : (وَإِنْ كَانَ « أى المدين » ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ . وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

وحض الله على الصفح فقال تعالى : (وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . وأخبر بأن من تجاوز عن حقه فقد تكفل الله بمثوبته . فقال تعالى : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) ولا شك فى أن الإتيان بلفظ « على » يشعر بأن الله التزم ذلك الأجر إلتزاماً مؤكداً يشبه إلتزام الواجب . كما فيه من الحث على العفو ما لا يخفى — وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتبشير والتيسير . ونهى عن التنفير والتعسير . فقال

عليه الصلاة والسلام (يسّروا ولا تعسّروا . وبشروا ولا تنفّروا)

وكما يسر الله على المسلمين ، يسر على من يرغب إعتناق الدين ، وعامله بامتياز خاص ، لا يناله من سبق إسلامه . فلم يوجب على من أسلم قضاء ما فاته فى كفره من صلاة أو صوم أو غيرهما ، ولم يؤاخذه بما اقترفه من جرائم وسيئات قبل الإسلام . كما قال تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) .

وفى السيرة النبوية بيان عن أن سيف الله « خالد بن الوليد » لما أسلم قال يا رسول الله أدع الله لي يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الإسلام يجب ما قبله) كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عفا عن أكبر أعدائه ، كأبى سفيان وزوجته ، وكانا من العداوة بمكان .

ويرى الإسلام أن من أسلم وتحته زوجة أو أكثر إلى أربع ، لم يحتج إلى تجديد عقد نكاحهن . بل يكتفى بالنكاح الأول . وقد أسلم غَيْلَانُ بن الثقفى وتحته

عشر نسوة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (إمسك أربعا وفارق سائرهن) . كما أن قيس بن الحارث الأسدى أسلم وعنده ثمانى نسوة فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يمسك أربعة ويفارق باقيهن . وكذلك نوفل بن معاوية الديلمى ، فقد أسلم وفى عصمته خمس نسوة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (إمسك أربعة وفارق واحدة) .

ولو أردنا بيان ما بالإسلام من يسر ومحاسن لشرحنا الدين بأكمله ، وذلك مالم نقصده فى هذا الكتاب . ولذلك نكتفى بذكر ما تقدم ، ونعقب عليه بكلمة موجزة فى بيان أحكام الأديان السابقة على الإسلام . ليكون من مقارنتها به دليلا — غير ماسبق أن بيناه — على أبدية هذا الدين . ونبين أن الله سبحانه وتعالى منذ بداية الخلق ، كان يتعهد الناس من وقت لآخر بنبى يرسله إلى كل طائفة منهم ، يرشدهم إلى التعامل بأحكام تكفل مصالحهم بحسب الزمن الذى وجدوا فيه ، إلى أن أرسل الله النبي محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة ، بدين صالح لجميع الأزمنة والأمكنة . ناسخ للأديان السابقة عليه .

وهذه الأديان السابقة على الدين الإسلامى . ليس بين

أيدينا من الكتب والمراجع ، ما يبين تكاليفها الفرعيـــة . أللهم إلا شريعة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام . فإن كتب العهد القديم تبين تعاليم الديانة اليهودية ، وكتب العهد الجديد تبين تعاليم الديانة المسيحية . فإذا أردنا المقارنة بين الدين الإسلامي وغيره من الأديان ، فلتكن بينه وبين هاتين الشريعتين ، حيث يوجد من الكتب المعول عليها عند أهل الديانتين ما يعلم منه أحكام كل من هاتين الشريعتين .

اليهودية

عرفت شريعة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بالشدة ، فكانت تقرر أن التوبة من الخطيئة بقتل النفس ، بينما نراها في المحمدية السمحة بالإقلاع عن الذنب مع النـــدم القلبي ، ورد الحقوق إلى أربابها . كذلك كانت الشريعة الموسوية تقرر في حكم الثوب إذا أصـــابته نجاسة بقطع الجزء الذي تـــلوث بالنجاسة قطعاً باتاً ـــ أما الإسلامية الحنفية فإنها تكتفي في هذا بغسل الثوب بالماء الطاهر .

وفي هذا فرق بين الحكمين عظيم . فشتان بين شخصين : أحدهما يقتل نفسه لخطيئته ، والآخر يمحوها بندمه وقولتـــه .

وشخص يتلف ثوبه لما ناله من خبث ، وآخر يغطه فى المـــاء غطاً ، ثم يخرجه طاهراً نضراً .

على أننا لانرى هناك محلا لالافاضة فى هـــذه المقارنة . لأننا لاننفى من ذلك سوى الاستدلال على أن الشريعة الموسوية وأحكامها شديدة على هذا النحو ، لم تكن لتوافق سوى عصرها الذى شرعت فيـــه . بل إنه من الواجب أن نعقب على ذلك بتنبيه الأذهان إلى أن تلك الشدة على نهايتها ، وهذه العقـوبة على قسوتها . لم تأت بها الشريعة الموسوية عبثـــاً . بل كانت لحكمة ، وموافقة لطبيعة قوم سيدنا موسى وقت أن أتاهم بها .

فمن الواضح أن بنى إسرائيـــل كانوا مستعبدين للفراعنة وأنتج هذا الاستعباد ضعفاً فى ضمائرهم وعزائمهم . وبدت ظاهرة ذلك واضحة ، فى صدهم عن سبيل الله ، وتعنتهم مع رسول الله . فقد أحرجوه بالأسئلة التى أوجبت مشقتـــه .

وكلنا يعرف قصة البقرة التى أمر موسى بنى إسرائيل بذبحها ، وضرب القتيل ببعضها ليحيا باذن الله . فما زالوا يتشددون ويسألون عن صفتها ثم عن لونهـــا . وهم فى كل مرة يجابون بما يضيق عليهم الدائرة . حتى لم ينطبق الوصف إلا

على بقرة واحدة ، فاضطروا لشرائها بملء مسكها ذهبـــاً .
ولو أنهم امتثلوا للأمر من مبدئه ، واعترضوا أى بقرة فذبحوها ، لقاموا بالواجب . لكنهم تشددوا فشدد الله عليهم . (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْـــدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) . وقد بلغ من تعنت بنى إسرائيل مع رسولهم سيدنا موسى عليه السلام ، أنهم لم يرضوا بالإيمان إلا بعد أن يروا الله جهرة . فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون إلى بعضهم ويتهاوون على الأرض موتى .

ولهذا أخبرنا الله عزوجل ببعض خطيئاتهم - والقرآن الكريم واضح فى هذا - تحذيراً لنا من أن يتخلق البعض بأخلاقهم .

المسيحية

جاءت شريعة سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، بالتجاوز عن الحقوق وترك القصاص حتى بين الحر والعبد ، وحرمت المقاتلة والحرب ، وكان التسامح فيها ظاهراً إلى أقصى حد . مع أن القصاص ضرورى لبقاء المجتمع (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) فلو ترك القصاص ، لم يجد المعتدون ما يصدهم عن غوايتهم ، فيعيثوا فى الأرض فساداً . ويختل بذلك نظام المجموع .

ومن فضول القول أن نعيد هنا ذكر ماقلناه عن الشريعة الموسوية ، من أن المسيحية كسابقتها ، جاءت مطابقة للوقت الذى نزلت فيه ، وملائمة لطباع أهلها أبناء ذلك العصر .

وواضح تماماً أن كلتا الشريعتين ، لو إستمر العمل بأحكامهما حتى اليوم ، لما أمكن إقامة أى حد من حدودهما . لذلك تجلت حكمة الله بأن جعلت هاتين الشريعتين ، وماعداهما من الشرائع السابقة على الإسلام ، بحسب مانزلت به على المرسلين ، محدودة بزمنها ، متفقة مع أهلها ، منسوخة بشريعة تأتى بعـــدها ، ونوه المرسلون عمن يأتى بها . فبشر سيدنا موسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأخبر سيدنا عيسى عليه السلام برسول يأتى من بعده اسمه أحمد هو نبينا عليه الصلاة والســـلام . فجاءت بعد تلك الشرائع الشريعة الإسلامية السمحة ، على يد سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وأكرمنا الله تعالى لأجل هذا النبى الكريم ، فكتب لنـــا رحمته التى وسعت كل شىء . بقوله تعالى :(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). كما جعلنا جل شأنه أمة وسطاً، ولم يجعل علينا فى الدين من حرج، بل جعله ديناً حنفياً سهلا ميسوراً. فلم يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ولم يحمل علينا إصراً كما حمله على الذين من قبلنا، ولم يكلفنا فوق طاقتنا. (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) ولو شاء ربنا لأعنتنا — كما فعل بالأمم السابقة علينا — وكلفنا بما ليس فى مقدورنا، ولكنه لطيف حكيم، رؤوف رحيم، يريد بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً).

المرأة والإسلام

يدعونا البحث الذي قدمناه ، عن سماحة الدين الإسلامي وحكمته ، إلى أن نأتي هنا على بيان علاقة المرأة بالإسلام .

ولهذا الأمر أهميته ، متى علمنا أن شأن المرأة من المواضع الحساسة ، التي تتجلى فيها حكمة الدين الحنيف ، فيما أمر به من الآداب الشرعية ، والأحكام الدينية . بل إننا بهذا نقف وجهاً لوجه مع أولئك الذين يطعنون على الإسلام من ناحية أمور المرأة ، لنرى مبلغ تصويرهم تلك الأمور بصـــور مشوهة معكوسة ، واستدلالهم لتأييدها بالاستدلالات الخاطئة .

فمن المؤلم حقـــاً أن نرى ونسمع عن قيام نفر من الرجال ، بدعوة جريئة تنطوي على أشنع صور الإلحاد ، بأسم الانتصار للمرأة ، في أمور يحرمها الدين ، ويأباها الذوق السليم ، وتسرع بنا إلى طريق الانحلال الاجتماعي ، وتقضي على البقية الباقية من ميراثنا الروحي .

ودعوتهم هذه لاشك أنها وليدة نظرتهم إلى الدين وأهله بالمنظار الأسود . فهم يصورنه بصورة القديم البائد ، ثم يناقضون

عن جديدهم بمختلف الوسائل . مع أنهم لا يمتون إليه بصلة ، فلا هم من أعداء القديم ، ولا هم من أنصار الجديد . ولكنهم ثرائرة ، يتبعون النعاق والنهاق . وليس بين دفتي التاريخ من خبر ذاع عدم شيعة وأنصاراً ، حتى الذين دعوا إلى محو حدود البشرية . وجدوا الأعضاد والأنصار .

يدلك على هذا إسرافهم فى دعوتهم . فقد أخذتهم موجة التجديد المزعوم ، إلى حد أن قرروا بخروج المرأة لميادين الألعاب الرياضية . حيث تعرض الأنوثة فنها ، وتؤدى المرأة ضريبة الاختلاط بالكشف عن جسمها . فيجنيها هؤلاء الأدعياء ، ويتفانون فى خداع النساء . فيظهرون لواحدة إعجابهم بما فيها من بياض يحكى البدر فى ضيائه ، ولأخرى ما لها من قوام يفوق الغصن فى أستوائه ، ولثالثة ما تفعله عيناها بالألباب فعل الخمر ، ولرابعة ما يوحيه شعرها من حلكة كظلمة الليل أو نقش الزهر . وهكذا لا يدعون حيلة فى استهواء النساء إلا مدوا شباكها ، يساعدهم فى ذلك طبيعة المرأة فى ألا تسبق فى زينتها . أو تغلب فى أنوثتها . وأنها دائمة الولوع بالفخار . وكسب قلوب النظار .

فأصحاب هذه الدعوة لاشك أنهم آثمون . إذ يستبيحون النظر إلى عورات النساء إرضاء لشهواتهم . ويرون فى العبث بأحكام الدين والخروج على أخلاق الأمة مرتعا للهوهم .

ويغالون فى دعوتهم فيزعمون أن حقوق المرأة تسع مصاحبتها من شاءت من الرجال ، والتأخر إلى ما بعد منتصف الليل فى دور الخيالة ، ومسارح اللهو والغناء ، وصالات الرقص . ولسنا بحاجة إلى تبيان ما يجرى فى دور الملاهى هذه ، ففيها ما يحمر منه وجه الإنسانية خجلا ، وما أنزه قلمى عن تسطيره . ويكفينا أن نتصور بشاعة الرقص المختلط ، وهو احتضان الرجل لامرأة أجنبية عنه ، ولو بحضور زوجها أو أبيها .

وفى النفس حاجات أرى أن ذكرها
أليم ولكن للضرورة أحكام

والحق أن هـــذه الأمور ليست من حقوق المرأة فى شىء ، بل هى تعاليم فاســـدة تهوى بالعفـاف والكرامة إلى الحضيض . فليس المطلوب من النساء أن يكن متبرجات بأسم المدنية القومية ، ويستبحن المحظورات بدعوى النهضة الاجتماعية . وإنما أهم ما يطلب منهن خلقٌ وثقافةٌ ، تتمكن المرأة بهما أن

تسيطر على بيتها ، وتقوم بشؤون زوجها وأولادها .

ولعله من المؤسف أن نقول بأن غالبية نساء مصر المسلمة ، قد أصبحن مشغولات بهذا الهذيان . يحصرن همهن فى الحياة فى أن يكن ذوات أجسام بضة ، وأذرع غضة ، وسيقان لفاء ، وقامات هيفاء . غافلات عن هؤلاء الرجال الذين ينالون أمانيهم منهن بالحيلة ، ويلبسونهن الرذائل باسم الفضيلة . ويدعون أن فى الفسق إعجاباً بالجمال ، وفى الخلاعة عملا بالكمال . ولا يتورعون عن الادعاء بأن فى هذا أخذاً بمبادىء المدنية ، وتقليداً للمرأة الغربية . وهم يعلمون حق العلم بأن المرأة المصرية ، غير موفقة فى انتهاج سبيل هذا التقليد . بل إنها قد ضربت المثل لما يسمى بالتقليد الأعمى . فقد رأت المصريةُ الغربيةَ تسفر فسفرت ، وبدت تجالس أصدقاء زوجها . ورأتها ترقص فرقصت ، وغدت تملأ المسارح ومحال الملاهى . وشاهدتها تغشى الشواطىء عارية ، فكانت هي الأخرى عارية فى خليج استانلى ، وشاطىء سيدى بشر ، وما إليهما .

رأت المصريةُ الغربيةَ فى كل ذلك فقلدتها ، وعميت عن أن تراها وهى تدخل الكنائس ، حتى كانت هى الأخرى فى

تقليدها لها تطرق باب المسجد ، لتؤدى فيه شعائر دينها ، وتقوم بواجبها نحو ربها . فلعلها وجدت أن اللهو سهل عليها فطالبت به حتى نالته ، ورأت أن الجد صعب عليها فلم تطلبه أو تعبأ به . أو لعل السبب يرجع إلى أن المرأة رأت فيما تقدم ، سبيلا إلى ظهورها بجانب الرجل ، حتى تتاح لها الفرصة لمزاحمته فى كل شىء . ومن المشاهد أن الشاب الحديث العامل بتلك المدنية الزائفة ، التى بينا كيف ضل فى الأخذ بها ، لم يكن ليغشى المسجد حتى تزاحمه المرأة . إنما المسجد اليوم مقصد الشاب الزاهد فى هذا النوع من الحياة ، مع من فى حكمه من طبقة العوام البؤساء الفقراء . والمرأة أزهد ما يكون فى مسابقة أو معرفة هذا النوع من الإنسان .

وظاهر جداً - مما قدمناه - أن السبيل الذى تطرقه المرأة اليوم ، نوع من العبث بالكرامة ، وضرب من إمتهان الديانة . وليس من شك فى أن إسناد ذلك إلى الحرية يبدو غريبا ، كما أن إعتباره حقاً للمرأة يعد عجيباً . لأن الأديان عامة ، والشرائع كافة ، تعرف للمرأة حقوقا غير هذا الاستهتار ، وحرية تليق بها كربة دار . ولو بحثنا عن هذه الحقوق فى كل

دين ، ونقبنا عن تلك الحرية فى شريعة كل أمة ، لرأينا أنه لا يوجد دين ولا شرع ولا قانون فى أمة من الأمم ، منذ خلق الله الخلق ، قد أعطى النساء من الحقوق والعناية ، والصون والرعاية ، ما أعطاهن الإسلام .

فقد كانت النساء قبل الإسلام مهانات محقرات ، مستعبدات مسخرات ، ومملوكات غير مالكات ، حتى عند أهل الكتب والديانات . فلما أشرق نور الإسلام ، وبزغت شمس رسالة النبي عليه الصلاة والسلام . أنتشلن من هذا الرق الأليم ، وحصلن على ذلك الفوز العظيم . وإننا نذكر على سبيل الإيضاح شيئاً مما كانت تعانيه المرأة قبل الإسلام ، فلما جاء حررها منه :

١ — كانت تعامل معاملة المال : فتورث رغم أنفها كما يورث المال الجامد ، والحيوان الأعجم . فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً) . فكان الرجل فى الجاهلية ، إذا مات عن زوجة ، جاء ابنه من غيرها أو أحد أقاربه ، فألقى ثوبه على هذه المرأة المسكينة المستعبدة ، وقال ورثت امرأته كما ورثت ماله . فيصير أحق بها من نفسها ومن جميع الناس ، فإن شاء تزوجها

من غير صداق ، وإن شاء زوجها من إنسان آخر وأخذ صداقها ، ولم يعطها منه شيئاً . سواء رضيت هي بهذا الزواج أم لم ترض . فكان نزول هذه الآية الكريمة ، محرراً للمرأة من هذا العدوان الأثيم ، وذلك الطغيان الكبير .

٢ — كانت المرأة تنكح نكاح المقت ونكاح الفاحشة :

فطهرها الإسلام منهما رحمة منه وفضلا . فأما نكاح المقت ، فكان الولد إذا مات أبوه عن زوجة غير أمه ، ينكح زوجة أبيه من بعد موته ، فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : (وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) . وأما نكاح الفاحشة فكان الرجل يجمع بين الأختين فنهى الله تعالى عن ذلك أيضاً بقوله : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ) .

٣ — كان الرجل إذا كره زوجته وأراد فراقها يسيء معاملتها ويضارها بالحبس والإيذاء : حتى تفتدي نفسها منه بالمال ، فيطلق سراحها لتتزوج من غيره . فكانت بذلك تعامل معاملة العبيد . فنهى الله عن هذا العمل الشنيع ، وذلك الأذى الشديد . بقوله : (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) .

٤ — كان أولياء الأمور فى الجاهلية يأخذون مهور النساء ولا يعطونهن شيئاً . ظلماً وعدواناً : فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) . أى اعطوهن مهورهن إعطاء محتما ، فريضة لهن من الله تعالى . ولا تأخذوا من مهورهن شيئاً إلا عن طيب نفس منهن (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) .

٥ — كان الرجل فى الجاهلية يتزوج بأكثر من أربع ويجمع بينهن : فحرم الله الزيادة عن الأربع بقوله : (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) . وأحل للرجل التزوج بأربع متى تحقق العدل فى الجمع بينهن . فإن خاف ألا يعدل فلا يتزوج إلا واحدة .

٦ - كانت المرأة تحرم من الميراث فى الجاهلية : فجعل الله لها نصيباً مفروضاً بقوله : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) .

٧ — كانت المرأة تكره على الزواج ممن لاتحب : فحرم الإسلام ذلك ، وجعل للمرأة الخيار فى التزوج ممن تحب . كما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تنكح الأيم حتى تستأمر . ولا تنكح البكر حتى تستأذن) . وسئل عليه الصلاة والسلام كيف يكون إذنها ؟ فقال : (أن تسكت)

٨ ـ كما كانوا يكرهون المرأة على البغاء ويأخذون الأجر : فمنع الإسلام ذلك بقول الله عز وجل : (وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

ونرى من المهم أن نأتى على سبب نزول هذه الآية الكريمة ، لنزيل بعض اللبس فى مدلولها . فقد كانت لعبد الله بن أبى سلول المنافق جاريتان ، يقال لهما مسيكة ومعاذة ، وكان يكرههما على الزنى لضريبة يأخذها منهما ـ كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، إذ يؤجرون إماءهم ـ فلما جاء الإسلام ، ووضحت للجميع محاسنه ، قالت معاذة لمسيكة : إن هذا الأمر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين ، فإن يك خيراً ، فقد استكثرنا منه . وإن يك شراً ، فقد آن لنا أن ندعه . فأنزل الله هذه الآية الشريفة . وقوله « إن أردن تحصناً » ليس شرطاً ، بل لبيان أن من نزلت بشأنهما الآية كما قدمنا ، قد أرادتا ذلك . والمعنى كما هو ظاهر ، إن أردن أم لم يردن . فالإكراه على البغاء محرم إطلاقاً .

فيقتلونهن قتلا شنيعا ، خشية العار والاسترقاق والإملاق . فحرم الله تعالى ذلك بقوله : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) وقوله: (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) وقوله : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ) ويروى فى ذلك أن المـــرأة فى الجـــاهلية ، كانت إذا حملت وحان أوان ولادتها ، حفـــرت حفيرة ، وتمخضت عـــلى رأس الحفيرة ، حتى إذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفيرة . وكان الرجل يأخذ بنته إذا شبت ، وقد زينها وجملها ، إلى بئر يكون قد حفرها لها فى الصحراء . ويقول لها أنظرى . فإذا نظرت جاء من خلفها ودفعها ، فتقع فى البئر ، ويميل عليها التراب حتى يستوى بالأرض .

وقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقاً أخرى ، منها قصر الجهاد والقتال على الرجال دون النســاء ، ما لم ينزل بالمسلمين الضرر ، فيجب عليهن أن يدافعن مع المدافعين ، كما حـــدث فى أثناء غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد شهدت كثيرات من المسلمـات الغزو ، وكنّ يهيئن الطعـام والشراب للمقـاتلين ، ويداوين الجرحى ، ويقمن بالتمريض . وقد جعل صلاة الجمعة

والعيدين على الرجال دون النساء ، لئلا يشغلن عن أولادهن ومنازلهن . وجعل النفقة الزوجية على الرجال لاشتغالهم بالكسب ، واشتغال النساء بتدبير المنازل . وكذلك نفقة أولادهن ، على الآباء دونهن ، لأن الرجال يعملون للكسب وهن يعملن لإقامة البيوت . وأيضا نفقة البنت جعلت على أبيها ، أو من تلزمه نفقتها من ذويها عند عجز الأب أو موته ، مادامت غير متزوجة ، لأن الكسب ليس من شأنها .

فمن هذا يتبين فضل الإسلام على النساء . وما أعطاهن من حرية وحقوق . ولا شك أن من هذه الحقوق وتلك المنن ، أمر تعدد الزوجات ، حتى يجد النساء من يحصنهن ويحميهن وينفق عليهن . إذ من المعلوم أن النساء أكثر عدداً من الرجال . فلو قصر الرجل على واحدة لبقى عدد عظيم منهن بلا زواج ، وفى ذلك مافيه من الضرر بهن ، وبأمتهن . وكذلك إباحة الطلاق فى حدود الشرع حتى لا يكون فى بقائهن من غير طلاق ـ على كره فى العشرة ، وعلى مضض فى الحياة ـ مضار لاتحتمل . وظاهر جداً فضل هاتين المكرمتين عليهن ، وما فيهما من خير لهن . ولذلك سأفرد لكل منهما باباً فيما يلي ، أتناول فيه بالتفصيل ذكر حكمة الإسلام

فى هذا الأمر ، وأوضح بجلاء أن الإسلام فيما شرعه للنساء ، لم يكن ليشرع لهن أو لغيرهن ، إلا ماهو خير ونعمة ، وما فيه كل الحكمة . كيف لا وقد أوحى به الحكيم القدير ، والعليم الخبير .

ومعلوم أن هذين الأمرين ـ التعدد والطلاق ـ يشترك فى فائدتهما الرجل والمرأة ، ولذلك كانا من حقوق الإثنين . إلا أن الشرع قد جعلهما بيد الرجل ، لأن له القوامة على المرأة . وإتماماً للفائدة ، نرى أن نضيف إلى البحث باباً ثالثاً ، نعرض فيه لنظرة الشارع الحكيم فى الأمر الأخير . ونتبين حكمة المولى القدير فى شأن ذلك .

ولترتيب البحث وتنظيمه ، نقدم الأمر الأخير على سابقيه ، ليفتح كل من الأبواب الثلاثة ، الطريق إلى الباب الذى يليه .

١ ـ الرجال قوامون على النساء

بعد أن خلق الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام وزوجه ، أمرهما أن يسكنا الجنة ، وأن يأكلا منها رغدا حيث شاءا ، ونهاهما عن الأكل من الشجرة . ويلاحظ فى هذا ، أن تلك الأوامر والنواهى الإلهية ، كانت موجهة إلى الزوجين فى شخص آدم (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

كما أن المولى عز وجل خاطب النبي صلى الله عليه وسلم عن نسائه فى قوله : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) ، ولما خاطبهن الله بالذكر، أضافهن إلى النبي بقوله : (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ) .

فالمرأة بذاتها لم تكن محلا لتوجيه الأوامر الإلهية ، والنواهى القدسية ، إلا مضافة إلى الرجل . كما أنها خلقت منه كقوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) فالرجل أصل والمرأة فرع . ومن هنا كان الرجل قواماً على المرأة ، وتبوأ رئاسة الحياة الزوجية . وذلك لما له من القوة الجسمية والعقلية ، وما عنده من الحزم والروية . فنحن نرى الرجل لا يبت فى أمر إلا بعد أن يجهد الفكر ، ويعمل النظر . فلا سبيل لأن تلعب به الأهواء ، وتستخفه حوادث الدهر . وفوق أنه أكمل عقلا ، وأوسع حيلة ، وأكثر صبراً ، وأقوى جسماً من المرأة ، فهو مهيأ للحياة والعمل ، والمكافحة وتحمل المشاق ، مما لا تقوى عليه المرأة . فأجدر به لذلك أن يكون رئيساً للأسرة . لأنه بهذا يتقلد المنصب اللائق به ، حتى يغمر زوجته وأولاده بنعمائه ، ويدفع عنهم ظلم المعتدين . وليس

يخاف علينا مايأتيه الرجل نحو زوجه وأولاده ، فهو يكدح فى الحياة ليستريحوا ، ويشقى فى عمله ليسعدوا . ولا يزال كذلك حتى يأخذ بيد صبيته من المهد ، ويتدرج بهم فى مدارج السعد ويوصلهم إلى أفق الشباب . ومتى كان الرجل قائماً نحو زوجه وأولاده ، بالسعى لمعاشهم ، وتدبير اللازم لحياتهم ، فلا أقل من أن يجعل الله له الولاية على من ينفق عليهم .

أما المرأة فقد خلقت لتكون أما وربة بيت ، ومديرة أسرة تتألف من أبنائها وبناتها . فهى دائماً مشغولة ومتعطلة بالحيض والنفاس ، والحمل والوضع ، والرضاع والفطام ، والتربية وتدبير البيت . ولعملها هذا فى الحياة خطورته ومكانته من الأمة جميعها . لأنها هى المربية الوحيدة لهذا النشء ، والمصلحة من شأنه فى مراحل التربية الأولى ، وبيدها صلاح الأمة وفسادها ، ورقيها وانحطاطها ، وتقدمها وتأخرها . فمتى قامت بوظيفتها خير قيام ، وتفرغت لواجبها وأدته بإحسان وإتقان ، نشأ الطفل نشأة حسنة ـ ومن شب على شىء شاب عليه ـ فيكون فى المستقبل رجلا عاملا نافعا ، يخدم وطنه ، وينفع أمته . ولقد صدق الشاعر إذ قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها ✡ أعددت شعباً طيب الأعراق

لهذا كان الإسلام حكيما ، إذ قررت أحكامه أن يفضل الرجل المرأة . وبدت ظاهرة ذلك فيما اختصه الله سبحانه وتعالى به ، من النبوة والرسالة ، والخلافة والإمامة ، والقضاء بين الناس ، وما إلى ذلك من الأعباء الكثيرة ، التى لا تستطيعها المرأة . ولعل ولاية الرجل فى الزواج ، تظهر قدره رغم ما تقدم . فالرجل وقد أبيح له التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع عند ضمان العدل ، أقدر على القيام بهذا من المرأة وأحكم . لأن المرأة سريعة الانخداع قليلة الحيلة . ولأن ماء الرجل فى أربع ينتج ، ويأتين بأولاد معروف أبوهم ، ومعلوم نسبهم . أما مياه الرجال فى واحدة ، تفسد بعضها بعضا فلا تلد المرأة ، وإن ولدت فلا يعرف للمولود أب . ولا يعلم إلى من ينسب ؟ !

وعملا بأحكام الدين فى تقديم الرجل على المرأة ، نجد أن الله تعالى جعل للرجل ضعف نصيب المرأة فى الميراث فقال تعالى : (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) وذلك لما يقوم به الرجل من الواجبات المفروضة عليه نحو شخصه وأهله ووطنه . أما المرأة فعبؤها على الرجل ، وتصرفاتها قد تكون سيئة . فإذا ساوت الرجل ، فقد تذهب بمال الأسرة إلى أجنبى عنها .

هذا هو الغالب . وإن كان فى الرجال سيئو التصرف ، وفى النساء محسنات التصرف ، وفى الرجال الكسالى ، وفى النساء العاملات . إلا أن الشرع الحكيم يراعى ما فيه المصلحة العامة .

كذلك جعل الله تعالى شهادة المرأة ، نصف شهادة الرجل . فقال جل شأنه : (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ . فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) لأن المرأة سريعة الانقياد والتأثر ، تنخدع بزخرف القول ، وتلين للحن الكلام ، وتميل مع الأهواء . ولهذا أيضاً نرى أن الشرع يدعو إلى اصطحاب المرأة لأحد محارمها فى سفرها بخلاف الرجل ، خشية وقوعها فى حبائل الشياطين من الإنس . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تسافر امرأة مسيرة يومين وليس معها زوجها أو ذو محرم) ولضعف إرادة المرأة أيضا ، ينهى الدين عن الاختلاء بها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (لايخلوّن رجل بامرأة) . وقال أيضاً : (لايخلوّن رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان) . فالمرأة لسرعة ميلها ، وانخداعها وتأثرها ، محتاجة إلى الرجل ليحميها . والرجل الذى يحمى نفسه وزوجه ، أحق بالقوامة عليها .

لهذا كله كانت للرجل القوامة على المرأة . وهذا هو العدل والحكمة ، وما يكون به نظام الحياة فى الأسرة والوطن .

ومتى علمنا هذا ، أمكننا أن نحكم ببطلان ما يردده أدعياء الانتصار للمرأة ، من القول بتمكينها من القيام بتقلد منصب الرجل ، لتكون معه على قدم المساواة فى الحياة الاجتماعية .

وظاهر أن قولهم هذا قد جاء بحسب الأهواء والخيال ، لأنهم لم يبحثوا عمن يقوم بواجب المرأة ، متى قامت هى بوظائف الرجل . أولعلهم يريدون أن ينعكس الحال ! أم ماذا يكون المآل ؟

ألا يرون معنا أن ليس هناك - بعد المرأة - من يرضع الطفل ويربيه . ويسهر على تمريضه ويواسيه ؟

الحق أن العالم قسمان : للرجل والمرأة . فإذا قامت المرأة مقام الرجل فى الحياة ، وكافحت فى سبيل العيش كما يكافح الرجل . فقد فقد العالم ميزانه ، وانتهى بذلك صرح العائلة . أما أن تأخذ المرأة قسطها من أساليب الحياة ، مثل العلم والتهذيب ، فهذا مالم يعترض عليه إنسان ، بل دعى اليه الإسلام . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) .

على أن الظروف تساعدنا فى القول بوجوب إبعاد المرأة

عن ميدان العمل ، وتخصيصها لما خلقت له ، من القيام بالشئون الزوجية ، والتدابير المنزلية . فالمشاهد أن الأعمال قد ضاقت بأربابها . والأمة فى حيرة أزاء مشكلة العاطلين من رجالها ، فالنا نزيد الأزمة تعقيداً ، ونبغى لحلها شططاً بعيداً .

أضف إلى ماتقدم أن المرأة لاتصلح لما سيطوحونها اليه ، فقد ثبت أن عقلها أقصر من عقل الرجل ، وقوتها فى الجهاد أقل من قوته . وأنها قليلة التفكير والعبرة ، وسرعان ماتملكها العَبرَة . وفى ذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (النساء ناقصات عقل ودين) . ولما سئل عن سبب قوله هذا أجاب : (أليست شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ فذلك من نقصان عقلها ! أليست إذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم ؟ فذلك من نقصان دينها !) .

من ذلك كله نرى أن الشارع الحكيم قدأنزل الناس منازلهم ، فقلّد المرأة منصباً لائقا بها ، لايمكن أن يشغله غيرها . وهى فيه تعمل على إسعاد زوجها ، وهو بدوره يسعى لإسعادها . (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

ب ـ الطـــلاق

أمر الله سبحانه وتعالى كلاً من الزوجين بالإحسان إلى الآخر، حتى تتم الألفـــة بينهما، ويتوثق ميثاق الزواج. وشكّك الزوج فيما قد ينشأ عنده من الاعتقاد بكره زوجته. فقال جل شأنه: (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيراً) وحقاً إن الإنسان كثيراً ما يكره الشيء وله فيه نفع (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) كالمريض الذي يكره الدواء، ويكون له فيه الشفاء.

وعند حصول نزاع بين الزوجين وتعذر أتفاقهما، أمر الله بالتحكيم بينهما. فقال تعـــالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا) وتعهد جل شأنه بالتوفيق متى رأى الحكمان الإصلاح. فقال عز وجل: (إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا) فيجمعهما على رأى فيه صلاح الزوجين وهناءتهما. فإن بلغ الشقاق غايته، ووصل النزاع نهايته، ولم يتمكن الحكمان من الإصلاح، وتبدلت الحياة الزوجية من مودة ورحمة، إلى بؤس ونقمة،

وسدت جميع الطرق الودية . كان لابد من الطلاق ، لينجو كل منهما من شر الآخر . وهنا يفرض الله على الزوج أن يعطى امرأته مابقى من مهرها ، ويحذره أن يأخذ شيئاً مما أعطاه لها . فيقول جل شأنه : (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً . أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وإِثْماً مُبِيناً . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ . وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) ثم يوجب الله للمطلقة سكناها ، ويحرم على الزوج مضارتها ، ويفرض لها نفقتها حتى تضع حملها ، إن كانت حاملا . فإن أرضعت ولدها فلها أجرتها . كما قال تعالى : (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ . فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَائْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

وقد رأى الله عز وجل توثيقا لعقدة النكاح ، أن يجعل فصمها بيد الرجل ، لأنه أقدر على ضبط عواطفه من المرأة ،

وأبصر منها بما تنكشف عنه حوادث الأيام . وحدد عدد الطلاق بمرتين (الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ) ولم يقطع أمل كل من الزوجين من صاحبه ، بل جعل المرأة وقفاً على الرجل مدة العدة ، وهي مهلة تكون في الغالب ، من أقوى العوامل على إزالة أسباب الشقاق ، وتعد هدنة لحسن التفاهم والاتفاق . وللزوج حق الرجعة في تلك المدة ، إن عزم على العدل والإصلاح . (وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً) .

ويحرص الدين كل الحرص على ألا يكون الطلاق وسيلة للإضرار بالمرأة ، كما نرى من فعال الكثيرين الذين يلجئون زوجاتهم إلى دخول المحاكم ، غافلين عن قول ربهم : (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ . فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

فإن طلق الزوج إمرأته الطلقة الثالثة ، أو طلقها طلاقاً باتاً . (فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ) يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته ، فإن طلقها الزوج الثاني ، وانقضت عدتها منه ، فلا جناح على المرأة وزوجها الأول أن يتراجعا .

المحلل

ومن الأمور الهامة ، أن ننبه الأذهان فى هـــذا المقـام ، إلى أن من الحيـل الدخيـلة على دين الله ، ويستنكرها الشرع ، ويعد فاعلها من الآثمين ، ما يقع من بعض المسلمين . من استعمال المحلل إذا ما وقع من الزوج يمين الطلاق البات ، أو كان الطلاق للمرة الثالثة . بأن يستأجروا شخصاً ، ويعقدوا له على الزوجة المطلقة من الأول بعقد صورى . وقد تقف المسألة عند مجرد العقد ، أو يدخلونه عليها حتى يذوق عسيلتها . ثم بعد ذلك يأمرونه بطلاقها ، حتى ترد إلى زوجهـا الأول ، ويتقاضى الشخص الأجير مبلغـاً من المال فى نظـــير ذلك . وقد تحدث عن هذا معاكسات ومشاكسات ، مبناها طمع الأجير فى المطلق ، إذا ما رآه ذا يسار .

وأقل ما يقال عن هذا العمل ، أنه زنا صريح ، لأن عقده إلى أجل ، وبأجر يأخـــذه الزوج . ثم أن الآية الكريمة تقول (فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ) وأما هذا فمأجور على أن يأتى تلك الحيـــلة السخيفة ، فلا يعد زوجا ، بدليل أنهم يطالبونه بالطلاق ويلزمونه به .

وطبيعي أن هذه الحيلة لا تخفى على الله العليم بكل شيء . وأن هذا العمل ليس من أوامر الدين أصلا . بل الدين بريء منه ، والإسلام أرفع بكثير من أن يكون فيه مثل هذه الحيل الدنيئة . وفى هذا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟) قالوا بلى يارسول الله . قال : (هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له) .

ولا يعترض أحد على هذا بوجوب التيسير لمن طلق امرأته ثلاثا ثم ندم ، لأن ذلك الشخص قد عصى الله بعمله هذا فأندمه ، وأطاع الشيطان فلم يجد له مخرجا .

وإلى جانب أولئك نجد نفراً يجعل الطلاق فاكهة كلامه ، يوثق به العهود ، ويؤكد به الأمور . ناسين قول النبى صلى الله عليه وسلم : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) .

ومن الحق أن نقرر أن مايفعله هؤلاء وهؤلاء ، ليس من الدين فى شيء . وأنهم ليسوا بفعالهم هذه حجة على الدين ، وإنما الإسلام حجة على الناس أجمعين . بما تقرره شريعته الغراء ، من وجوب الإحسان فى معاملة المرأة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لكم على نسائكم

حقاً ، ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن إنتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان - وفي رواية أخرى عوار - ، ومعنى الأولى معينات ، والثانية أمانات ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانات الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله) .

كما أن القرآن الكريم يذكر الزوجين بما بينهما من محبة وفضل ، كما جاء في قوله تعالى : (وَلاَ تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ) .

فمن واجب الزوج ألا يشتط في العتاب مع زوجه ، ولا يغلظ عليها في معاملته ، وإنما يرفق ويلين خشية الشقاق ، ووقوع العداء .

وليس من معترض بعد هذا على الدين في شرعه الطلاق ، فقد رأينا أنه أوجده لئلا يكون الزواج غلا في الأعناق ، ونفر منه إلا إذا تعذر الوفاق . فهو طريق للخلاص إذا تعقدت جميع الطرق عداه ، ولم يوجد طريق سواه .

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا ✡ فما حيلة المضطر إلا ركوبها

جـ ـ نظام تعدد الزوجات

قضى الإسلام على الكثير من ضروب الفوضى ، التى كانت متفشية فى عادات العرب ، وضمنها نظام تعدد الزوجات . وقد رأى الشارع الحكيم ، أنه ليس من الحكمة أن يحظر التعدد أصلا ، لما فى منعه من صدمة كبرى لتقاليد الناس وعاداتهم ، وضيقا شديداً تأباه سهولة الإسلام وسماحته ، ولكن أمام ما كان متبعا عند العرب وسائر الأمم الشرقية ، من عدم إتباعهم نظام معين فى تعدد الزوجات ، ولا فى معاملتهن . رأى الإسلام مراعاة لمصلحة المجتمع ، أن يبيح التعدد إلى أربع ، وجعله مقيداً محصوراً ، فاشترط لذلك شرطا وثيقا ، هو العدل بين الزوجات (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) .

ولما كان ميل الزوج إلى نسائه يتفاوت بين امرأة وأخرى ، ولا يقدر زوج على امتلاك ذلك الميل القلبى ، أو السيطرة على ذلك الشعور الفطرى . بيّن الله عز وجل أن العدل بين الزوجات بالمعنى الصحيح ، يكاد يكون نادراً أو مستحيلا . ولو بذل الزوج فيه جهده ، وحرص كل الحرص عليه . وأباح للرجل

أن يميل بقلبه فقط إلى إحدى زوجاته ، إن لم يضر هـــذا الميل بالباقيات ، أو يضيع حق واحـــدة من الزوجات . وفى ذلك يقول الله تعالى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ)

ومن راقب أحوال الأمم الإجتماعية فى عصور مختلفة ، وجدها تتطلب تعدد الزوجات فى كثير من الظروف . فمثلا :

١ — يزداد عدد النساء على عدد الرجال فى بعض الأمم ، وتكون تلك الزيادة عظيمة عقب الثورات والحروب الطاحنة ، التى يقتل فيها معظم الرجال . وليس ببعيد مافعلته الحروب الروسية اليابانية ، أو الترنسفالية الإنجليزية ، أو العثمانية البلقانية . وأفظع من ذلك كله تلك الحرب الكبرى ، التى لاتزال ماثلة فى الأذهان بويلاتها ومصائبها . ولو نظرنا فى التاريخ لوجدنا أن القرآن والتوراة ، قد ذكرا أن فرعون كان يذبح أبناء اسرائيل ويستحيي نساءهم ، وأنه غرق فى البحر مع أمم كثيرة ، يقدرها بعضهم بستمائة ألف فى يوم واحد . وكما أن الرجال معرضون لأخطار الحروب الآكلة ، فإن أعمالهم تعرضهم لمخاوف الأسفار فى البر والبحر . فضلا عن مهاوى الجنايات منهم على غيرهم ، ومن

غيرهم عليهم . ومعاناة الأشغال التى تكون لاستخراج المعادن من مكانها ، واللآلىء من مستقرها ، مما يجعلهم أمام خطر البراكين وغيرها . وما يلحق ذلك من أخطار السباق على الخيول ، أو المصارعة المعتادة . وإن شئت ضممت إلى هذا ماتسمعه عن حوادث الانتحار ، التى يلجأ اليها الكثير من الرجال ، تخلصاً من مضايق الحياة ، ومتاعب العيش . وهذا كله مما يتناقص به الرجال تناقصاً كثيراً . ولا شك فى أن كل هذا لا يكاد يوجد فى النساء ، إلا على سبيل الشذوذ فى أحوال نادرة . وقد دلت الإحصائيات الرسمية ، على أن النساء أكثر من الرجال .

فإذا نظرنا إلى هذه الحوادث ، رأينا أن فى تزوج الرجل بأكثر من امرأة ، تكليف للرجال ليقوموا بضروريات النساء ، فيقل وجودهن فى ميادين العمل الشريف وغيره .

٢ — قد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، أو بها مرض مزمن ، وليس من العدل قصر الرجل عليها ، وتحريم غيرها عليه . لما فى ذلك من قطع النسل — والحرمان من الأولاد يهدم الأمل فى الحياة ، لأنهم زينة الدنيا ، وريحة الفؤاد — كما أنه ليس من الوفاء أن يفارق الرجل تلك الزوجة العقيم ، أو ذات الجسم

السقيم ، ويبيع ما بينه وبينها من حب وإخلاص وولاء ، فيفقدها من يعولها . ومن هنا نجد أن الزواج بغيرها ، مع مراعاة حقوقها ، يوفق بين مصلحته ومصلحتها . ومثال ذلك أيضاً ، الرجل الذى تدفعه طبيعته البشرية ، إلى قضاء حاجته الجنسية ، فى وقت يكون قد نزل بامرأته حيض ، أو ألمّ بها نفاس . فهل من المعقول أن يأتيها فى حيضها ، أو يقربها فى نفاسها ؟ أم يتخذ له عاهراً يقضى معها وطره ، ويقضى حاجته ؟

ومتى رأينا وجاهة تعدد الزوجات . وجب أن نعلم أن من واجب الزوج أن يعدل بين زوجاته ، كما بينت الشريعة الإسلامية . ويراعى ما أوجبته عليه لهن فى المبيت والنفقة ، والكسوة والمحبة ونحو ذلك . لتسعد بهذا أسرته وأمته ، والعالم أجمع .

على أننا نجد أيضاً ـ من طريق آخر ـ أن المجتمع فى حاجة ماسة إلى تعدد الزوجات ، لأنه يجنى من ذلك الفوائد الآتية :ـ

١ ـ كثرة الأولاد : وهم رجال المستقبل الذين ينفعون أهليهم ، وتكثر بهم أمتهم ، ويعتز بهم وطنهم ، ويفتخر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . كما قال عليه الصلاة والسلام : (تناكحوا تناسلوا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة)

٢ ـ يكثر أنصار الرجل ومؤازروه : إذ من المعروف أن من تزوج من أسرة فقد امتزج بها ، وأصبح واحداً من أفرادها . ونحن نرى أن الدول تعمد إلى هذه الطريقة إبقاء للسلام ، وتوثيقاً لعرى الصداقة والوئام . فعندما يقوم النسب بين ملكى دولتين ، يكون من المنتظر توحيد سياستهما ، واتحاد مصلحتهما .

٣ ـ إستغناء عدد عظيم من النساء عن العمل لجلب قوتهن : ويتبع ذلك قلة عدد العاطلين من الرجال . لأن المرأة لا تطرق باب العمل إلا مكرهة ، لفقدانها من يحمل عنها عبء الحياة .

٤ ـ أضف إلى كل ذلك أن الحالة الخلقية تتحسن : إذ يصان عفاف الكثير من النساء بزواجهن .

وقد فطنت الأمم الأوروبية اليوم ، إلى فوائد التعدد التى بيناها ، ووجدت أن السبيل إلى الانتفاع بها ، هو إقرار نظام تعدد الزوجات ، هذا الذى قرره الإسلام قبل اليوم بأربعة عشر قرناً (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وهكذا نسمع عن الترنم بمحاسن الإسلام وحكمته ، فى وسط لا يدين به . فلله در من قال :

شهد الأنام بفضله حتى العدا ✻ والفضل ماشهدت به الأعداء

قواعد الإسلام

بعد أن بيّنا فيما سبق مزايا الدين الإسلامى ، وسماحته وحكمته . نرى أن نأتى على ذكر قواعده ، لنلمس حقيقة هذه السماحة ، ونتعرف مدى تلك الحكمة .

وقواعد الإسلام عرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حديث شريف له بقوله : « بنى الإسلام على خمس :

(١) شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

(٢) وإقام الصلاة . (٣) وإيتاء الزكاة .

(٤) وصوم رمضان . (٥) وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا »

فبهذه القواعد الخمسة ، قام دين الإسلام . فكان ديناً خالداً منصوراً ، كفل لمن استمسك به عزاً دائماً ، ونصراً مبينا .

ولبيان ذلك نرى أن البحث ينقسم إلى قسمين :

الأول ـ يختص بالقاعدة الأولى وهى الشهادتان .

الثانى ـ يختص بالقواعد الأربعة الأخرى ، أى الصلاة والصيام والزكاة والحج . ولاتصالها ببعضها ، نرى تسميتها جميعاً بالعبادات .

ونتناول فيما يلى الكلام على كل من القسمين على حدة :

١ — الشهادتان

١ — شهادة أن لا إله إلا الله

لاشك أن شهادة أن لا إله إلا الله ، هى توحيد الله سبحانه وتعالى ، والاعتقاد بأنه واحد لاشريك له . كما قال تعالى ، مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) وتوحيد الله تعالى هـــو أساس الدين ، وأعظم أركانه . لأنه يتوقف عليه الخضوع لله ، والرجوع إليه فى كل شىء . لاسيما إذا نزلت المصائب ، وجار الدهر . كما أنه يرمى إلى اعتبار الله تعالى هو المثل الأعلى ، وأنه ليس كمثله شىء . وأنه قد اتصف بجميع صفات الكمال ، وتنزه عن صفات النقص . وأنه وحده هو الحاكم بين عباده ، تخشع له القلوب ، وتقف عنده الأفكار .

والقرآن الكريم يدعو إلى هذه العقيدة الصادقة ، ويؤيد ذلك بالبراهين المنتزعة من الوجود ، فاستمـــع إليه حين يقول : (وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ

الناسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

ثم يبين العقيدة الفاسدة ، ويذكر ما يترتب على اعتقادها من عدم الفائدة . ويُزَيِّفُ المعبودات من دون الله . وينفى عنها أوصاف الألوهية . وإليك قوله تعالى فى ذلك : (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ . فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا . أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا . أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا . أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ . فَلاَ تَنْظِرُونِ . إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ)

ويزيد القرآن الأمر وضوحاً ، فيأتى إتماماً للبراهين ، على وجوب الاعتقاد بوحدانيته جل وعلا . بالموازنة بين الإله

الحق ، وبين ما يعبد من دونه . كقوله تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) . وفى ذلك أيضاً يضرب الأمثال ، ليقرب البعيد ، ويصور المعقول بصورة المحسوس . بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وهكذا يفيض القرآن الكريم ، بالأدلة والبراهين ، حتى يملأ النفس يقيناً ، واطمئناناً إلى الحق ، ويزيح عنها كل شك وارتياب . فتصبح النفوس أمام نور ساطع ، قد شع ضوؤه عليها فملأها . وأمام حق واضح ، أخذ عليها مشاعرها ، وملك إحساسها . فلا ترى عنه محيصا ، ولا ترضى منه بديلا . إلا من أضل الله ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

ولا ريب فى أنه متى اعتقد الجميع وحدانية الله سبحانه وتعالى ، توحدت وجهة النظر ، وعنت الوجوه للحى القيوم .

ويشعر الكل بأنهم مسئولون أمام إله واحد ، ويطمئنون إلى أنه سيطبق عليهم قانون واحد . (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

ويكون الأمر على عكس ذلك ، إذا اعتقد الناس تعدد الآلهـــة . إذ تتفرق قلوب العابدين ، وتتشعب وجهة النظر . فيقضى كل وطره من شهواته ، مستنصراً بإلهه . فينتشر الفساد ، ويسوء حال العبـــاد . ويستبد الحكام بالمحكومين ، ويعمل المحكومون على زوال سلطة الحاكمين . (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) وَ (لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ . وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) .

فمن كل هذا يبدو أن التوحيد ـ الشهادة بوحدانية الله ـ هو أس الإيمان ، وعليه شيد الإسلام . ويرجع التوحيد إلى اعتقاد القلب وجزمه ، بأن الله واحد لا شريك له ، ويتبع ذلك الإيمان بملائكته وكتبه ورسله . ويظهر أثر الإيمان بالجوارح ، بأن نستعملها فيما يرضى الله ، ولا نتوانى عما طلبه منا . فنقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم ، ونحج ، ونعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به . إمتثالا لأمر ذلك المعبود الذى نعظمه ، ونعتقد بسيطرته وجبروته .

وفى الكلام على توحيد الله تعـــالى . نعرض إلى مايقوله المشركون من انتساب سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام اليه سبحانه . وهو قول شنيع ، ينفر منه العقـل ، ويستنكره الدين .

وقد تعرض القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، إلى نفى هذه الفرية الجسيمة . وعدها أمراً تكاد السموات تنشق منه ، والجبال تسقط له . ليبين مبلغ ماأعد لمقترفها من عذاب أليم . كما جاء فى قوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَـــالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰـوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْداً)

والواقع أن أمر سيدنا عيسى قد أصبح واضحاً ، وثبتت خلقته بأذن الله . إلا أن المجادلين فى ذلك قد أتوا من طريق آخر ، ففرقوا بينه وبين سائر البشر فى الخلقة ، ليتوصلوا بذلك إلى ادعائهم ، ولسنا بحاجة لأن نسد عليهم الطريق ، بعد أن أنزل الله فى ذلك الآية الشريفة (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْـــدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

ونراهم يستندون فى محاجتهم إلى قول الله تعالى : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) وأظن أن انتفاء الألوهية عن سيدنا عيسى ، قد ثبت بقول الله فى هذه الآية (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله) أما إنه لم يذكر فى بيان أمر خلقته ، من الآيات مايجعله يتبع سائر البشر فى ذلك ، فهذا مالا نوافقهم عليه . لأن قول الله تعالى فى أمر سيدنا عيسى (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) ليس معناه أن سيدنا عيسى جزء من الله ، لأنه تعالى قال فى شأن المخلوقات مثل ذلك (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) وليس من المعقول أن تكون الأشياء التى فى السموات والأرض أجزاء منه سبحانه .

وكذلك قول الله فى حق عيسى (وروح منه) يقابله قوله تعالى فى شأن آدم (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى) .

فالتوافق بين نفخ الروح فى سيدنا آدم وسيدنا عيسى عليهما السلام ، وايجادهما بعد العدم ظاهر تماماً . وإضافة الروح لله جل وعلا ، جاء لتعليل وجود كل منهما بغير النطفة المنفصلة من أب حى . وتشريفهما بإنشاء كل منهما بالقدرة من غير أب .

ب — شهادة أن محمداً رسول الله

شهادة أن محمداً رسول الله ، إحدى شطرى القاعدة الأولى ، من قواعد الإسلام الخمس ، وهى « الشهادتان » . ومجرد ذكرها ، فيه كل الدلالة على أنه صلى الله عليه وسلم ، وهو المنة الكبرى ، والنعمة العظمى ، التى أنعم الله بها على عباده ، فضلا منه ورحمة ، ودل عليها بقوله تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) قد رأى الله تعظيما لهذا النبى الكريم ، أن يقرن محبته جل شأنه ، بمحبته صلى الله عليه وسلم ، ويؤثرها على الأشياء التى تعد محبتها لدى الإنسان أمراً فطرياً . قال تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ) كما جعل طاعته جل شأنه ، فى إطاعته صلى الله عليه وسلم . فقال تعالى :

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

وقد اختار الله سبحانه وتعالى ، للنبي صلى الله عليه وسلم ، في التشهد وصفين « أنه عبد الله ورسوله » وللعبودية آثار جليلة ، تدل على مبلغ تعظيم الله تعالى للنبي ، إذ يصفه بأنه عبده .

فمن المعلوم أنه ليس للهوى والشيطان سبيل على عباد الله ، كقوله تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وكما جاء في قوله تعالى : (وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)

ولا عجب في أن ينال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الوصف من ربه سبحانه وتعالى . فقد دل تماماً على عبوديته ، قبل الرسالة وبعدها . فكان عليه الصلاة والسلام كثير الضراعة والابتهال ، متفان في محبة الله . وكان صواماً ، قواماً ، خائفاً ، خاشعاً . ينزعج سره إذا لاحظ جلال الله ، ويمتلىء قلبه بهجة وأنساً إذا أطلع على جماله ورحمته . وبهذا أسس قاعدة للمسلمين ، يكونون بها شديدي المراقبة والخشية لجانب الله تعالى . فدل على مشاهدة الحق بالقلب ، حتى كأنما يرى بالعين . وهذا في « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

وبهذه العبودية أدى للخلق حقهم كاملا . فاتجه إلى إصلاحهم ،

واعتبر نفسه جزءاً من الكون ، وجوده بوجوده ، وصلاحه بصلاحه . فلم يتصور لنفسه وجوداً مستقلا . ولم يحفل بما فى الحياة من خير وشر ، ومال وجاه . بل استهان بحياته فى مواقف كثيرة ، وعرضها للخطر . واحتمل ألواناً من الإيذاء ، لا يصبر على مثلها إلا من كان عبداً لله مثله . وطرح العداوة والضغائن والأحقاد جانباً ، وسار لا يلوى على شىء حتى اطمأن آخر الأمر ، إلى أنه أدى الأمانة لله وللناس . فكانت له عن حق وجدارة ، تلك السجايا العديدة ، والعطايا المجيدة ، التى خصه الله تعالى بها . ولم يجعلها لأحد غيره ، من الأنبياء والمرسلين ، عليه وعليهم الصلاة والسلام . ومنها ذلك الفضل العظيم ، والخير العميم . والشرف الذى لا يسامى ، والمقام الذى لا يدانى . الذى دل عليه سبحانه وتعالى فى قوله : (إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . فهذه الآية الكريمة واضحة تماماً ، فى بيان مقامه صلى الله عليه وسلم ، عند ربه الذى اصطفاه ، واختصه بالرسالة الأبدية الخالدة .

والصلاة من الله معناها الرحمة ، وتتعدد آثار هذه

الرحمة . وتختلف باختلاف من يصلى الله عليه . لأن الله تعالى كما يصلي على النبي ، يصلي على المؤمنين . كما جاء فى قوله: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقوله سبحانه: (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ)

وليعذرنى أخى القارىء الكريم ، إذا أنا أطلت فى بيان ذلك الأمر مع وضوحه ، وأسهبت فى شرحه مع جلائه . لأرد بذلك على قول ، سمعت أنه وجه من بعض أعداء الإسلام ، إلى بعض إخواننا المسلمين . ليفتنوهم فى دينهم ، ويزحزحوهم عن عقيدتهم . فقد تساءلوا : كيف أنكم معاشر المسلمين ، تعلمون بأن رسول الله محمداً هو خير العالمين ، وأن له عند الله فضلا وشرفاً عظيمين ، وأنه فى أعلى عليين . ثم تضرعون إلى الله وتطلبون له الرحمة ، بقولكم اللهم صل على سيدنا محمد ، مع أن الرحمة لا تطلب إلا لعاص مذنب ، لا لنبي مرسل . ؟ !

والواقع أن هذا القول لا يحتاج إلى الرد ، لأنه يدل على مبلغ افتراء هؤلاء على الدين ، وإعمالهم على إبطال حجته ، وإطفاء نوره . (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

على أن مادعانا إلى إتيان هذا ، هو قلق بعض المسلمين عند سماع مثل هذه المفتريات ، وإشفاقهم على الدين من أن يتعرض لمثل هذه الشبهات . ولو عنوا هؤلاء بالبحث قليلا فى مدلول رحمة الله ، لعلموا بأن هذه الرحمة تختلف باختلاف من يصلى ربهم عليهم . وهى بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثناء من الله عليه ، وتعظيم له عند الملائكة والعباد . بإعلاء ذكره ، ورفع قدره ، وإظهار شرفه ، وإعلان دينه ، وإبقاء العمل بشريعته ، وتكريم أمته ، وحفظ الكتاب المنزل عليه من ربه ، وغير هذا مما أكرمه الله به فى الدنيا . فضلا عما يسبغه عليه من الرحمة فى الآخرة ، بتشفيعه فى أمته - بل فى كل الأمم - وتقديمه على جميع المقربين برؤية الملك المعبود ، إلى غير ذلك مما لا يعلم علمه إلا الله تعالى .

والصلاة من الملائكة معناها الدعاء بالاستغفار أو غيره ، وفى الاستغفار أو نحوه ، رفع منازل وعلو درجات . ولا يلزم فى الاستغفار أن يكون هناك ذنب يستغفر له ، فقد يكون الغرض منه مجرد الذكر ، والإقرار لله تعالى بأنه صاحب المغفرة . قال تعالى : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) فلم يقل جل شأنه ويستغفرون للذين أذنبوا ! وفى استغفار الملائكة للمؤمنين زيادة فى ثوابهم ، لأنهم فعلوا ما يستحقون من أجله هذا الاستغفار ، وهو اتباع شريعة خير الأنام عليـــه الصلاة والسلام ، وقيامهم بالأعمال الصالحة التي استحقوا أن يتصفـوا من أجلها بالمؤمنين ، حتى أمرهم ربهم بالاقتداء به وبملائكته ، فى الصلاة على نبيه كما سبق .

وفى بيان إكرام الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، نقتطف من القرآن الكريم بعض ماقصه علينا ، مما أفاضه الله جل وعلا عليه صلى الله عليه وسلم ، من العظمة وفاضل الأخلاق ، مالم ينله أحد من الخلق ســـواه :

١ ـ قال الله تعالى فى آخر سورة التوبة (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) وظاهر تماماً من هذه الآية الكريمة ، منحة المولى الكريم ، للنبى العظيم . فقد خصه جل شأنه باسمين من أسمائه الحسنى ، أو صفتين جليلتين من صفاته السامية ، هما قوله « رؤوف رحيم » .

٢ ـ وجاء فى مخاطبته تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) وفى هذا إشارة إلى أن رسالته صلى الله عليه وسلم ، رحمة للانس والجن والملائكة . أما الإنس والجن ، فبهداية من إهتدى منهم ، ورفع العذاب عن المخالفين فى حياته . كقوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) وفى إمهالهم فرصة ليتذكروا فيها . وأما الملائكة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل جبريل عليه السلام (هل أصابك من هذه الرحمة شىء ؟) . قال : نعم . كنت أخشى العاقبة . فأمنت لثناء الله عز وجل علىّ بقوله : (ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

٣ ـ جعل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم سراجاً منيراً ، (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) . وبهذا النور المحمدى ، إهتدى الناس إلى الحق ، وانقشعت عنهم غياهب الظلام (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

ولا نرى بأساً من أن نشير إتماماً للفائدة ، إلى ما ورد فى حكم هذا النور المحمدى ، من قول أشياء عنه (أنا الرب

قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك ، وأحفظك ، وأجعلك عهداً للشعب ، ونوراً للأمم ، لتفتح عيون العمى ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن ، الجالسين فى الظلمة) . ويؤيد هذا تماماً ، قول الله تعالى فى القرآن الكريم : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) .

٤ ـ قد سمى الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم « الحق والمبين » بقوله : (وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) وقوله (قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) . وقد فسر العلماء الحق بالرسول ، وفسروا المبين كذلك به عليه الصلاة والسلام . ومعنى كونه الحق ، أى الرسول الثابت الرسالة ، أو ذى الحق . والمبين أى الواضح أمره ، والظاهر شأنه ، أو المبين عن الله ما أنزله اليه (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

٥ ـ منح الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، قسطاً من علمه برع به كل ذى علم ، كقوله : (وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) وقوله : (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) .

فمن عظيم لطف الله بنبيه وبأمته ، أن أفاض عليه من العلم — وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب — ما أعده لأن يتلو عليهم آيات الله تعالى ، بقوله ويعلمهم الكتاب وما فيه من الحكمة .

٦ — نوه الله فى كتابه الكريم عن عزته جل شأنه بقوله : (وَاللهُ عَزِيزٌ) وقد أفاض على رسوله وعلى المؤمنين من عزته سبحانه فقال : (وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

٧ — وصف الله نفسه بأنه مبشر فى قوله : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) . وقوله : (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) وقوله : (يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) وقد أجل الله النبى إجلالاً كبيراً ، إذ جعله مبشراً فى قوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) . وقوله للنبى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

٨ — من أسماء الله تعالى — المولى والولى — كقوله : (وَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ) وقوله : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ) . ومن نعم الله على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ، أن سماه باسمه فى قوله تعالى :

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) .

٩ — كان الله تعالى يخاطب النبي وينادي بالألفاظ التي تشعر بعظمته وجلاله كقوله : (يَاأَيُّهَاالنَّبِيُّ) : (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) : (يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ) بينما كان الله تعالى ينادي رسله وأنبياءه عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم المجردة ، كقوله تعالى في كتابه الكريم : (يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) وقوله : (يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) وقوله : (يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) وقوله : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) وقوله أيضا : (يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) وقوله : (يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ)

١٠ — وفي النهاية نرى الله قد أقسم بالنبي محمد في كتابه ، ولم يقسم بأحد من أنبيائه بقوله : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) .

فلا شك بعد هذا في أن يكون نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزله الله هذه الدرجة من التعظيم والتقدير ، يستحق أن يكون خاتم النبيين وإمامهم ، وإن كان قد جاء آخرهم .

٢ — العبـــادات

العبـادة هى أقصى غايات التذلل والخضوع . ولا تكون إلا بانبعاث وتأثر مخصوصين . إذ لو رأينا رجلا يخضع لعظيم من قومه ويتذلل له ، وقلنا له إنك تعبده ، لأنكر علينا ذلك كل الإنكار ، وتبرأ منه جهد المستطاع . وما ذلك إلا لعدم صدور هذا الخضوع وذلك التذلل ، عن الانبعاث والتأثر المخصوصين .

ويختلف هذا الانبعاث وذاك التأثر ، باختلاف الأشخاص ، وقوة إيمانهم وضعفه ، وشدة مراقبتهم لجانب المعبود وعدمها . ويتبعهما فى ذلك التـــذلل والخضوع . فكلما كمل إيمان العابد ، واشتدت مراقبته لجانب المعبود . كثر التذلل ، وخشعت النفس ، وخشعت الجوارح أثناء قيامها بالعبادة ، ووقوفها بين يدى ربها ، تناجيه وتظهر له مقتضيات عبوديتها . وهذا عند الكُمَّل من عباد الله . الذين أشار إليهم بقوله : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) .

وقد خلق الإنسان متهيئاً بطبيعته ، ومستعدا بفطرته ، لقبول تلك العبادات ، بما له من العقل والنطق ، مما يميزه عن ســـائر الحيوانات والجمادات . لذلك كلفنا الله بالعبادة دون سائر

المخلوقات ، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ . فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) .

وقد قالوا فى تفسير هذه الآية ، أن المراد بالأمانة المعروضة على السموات والأرض والجبال ، هو تكليفها بأن تتعرض لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية . والمقصود بالعرض عليهن ، تهيئتها واستعدادها لتلقى هذا التكليف . والمعنى بإبائهن ، الإباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد . وبحمل الإنسان ، قابليته واستعداده . وعلى ذلك فقوله تعالى « إنه كان ظلوما جهولا » خرج مخرج التعليل . فإن الظلوم من لا يكون عادلا ، ومن شأنه أن يعدل . والجهول من لا يكون عالماً ، ومن شأنه أن يعلم . وهذه حالة الإنسان ولا شك ، أما غيره فهو إما عادل عالم ، لا يتطرق اليه الظلم والجهل بحال كالملائكة ، وإما ليس بعادل ولا عالم ، ولا من شأنه أن يكون كذلك . وهذا كالبهائم والجمادات ، فليس لها استعداد لتلقى هذا التكليف بطريق الفطرة ، وإنما يليق بالتكليف ويستعد له الإنسان دون غيره .

وللعبادة وسائل لكى تكون بها مرجوة القبول وهى :

١ ـ أن يقصد العابد بعبادته ذات المعبود . من غير رجاء لمثوبة ، أو خوف من عقوبة . فإن قصد بها واحداً منهما ، فهو غير كامل الإخلاص ، لأنه سعى لنفسه . ولذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل . ولا كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل) .

٢ ـ ومنها ترك الرياء ، لأن فى الرياء إشراك غير الله فى العبادة . وهذا ينافى قوله تعالى : (وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) . أى لا يرائى المؤمن فى عمله . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قيل : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : (الرياء) .

٣ ـ ومنها كمال المراقبة لجانب الله تعالى ، وهى أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه ، متيقناً أنه معه فى كل عمل من أعماله . كما قال جل شأنه : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) فإن راقب الإنسان مولاه فى العبادة على هذا النحو ، خشعت جميع جوارحه ، وخلا قلبه من كل شواغل الدنيا ، وتفرغ لمناجاة ربه . فامتلأ من جلاله ، وهذا هو نهاية الإيمان وكماله .

٤ — ومن هذه الوسائل ، أن يسرع الإنسان بفعل العبادات عند حلول وقتها . فإن سوّف رجاء أن يستدرك مافاته فى وقت آخر ،فهو ظاهر الجهل ، ضعيف العقل ، لأنه لا يدرى أى يوم ينتهى فيه أجله ، حتى يحقق قبله أمله .

فمن أتى بالعبادة على وجوهها المتقدمة ، واستقصى وسائلها السابقة ، كانت عبادته إلى القبول أقرب منها إلى عدمه .

(إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً) .

وقد أمرنا الله تعالى ، بأن نؤدى العبادة له على أربعة أنواع رئيسية : الصلاة — والزكاة — والصيام — والحج .

وسنبحث فيما يلى هذه التكاليف الرئيسية ، والآداب الشرعية ، التى وجهها الإسلام إلى معتنقيه فى سهولة ويسر ، مراعياً فى ذلك مصالح البشر الدنيوية والأخروية .

ولكى نتناول أوجه كل نوع من أنواع العبادة الأربعة ، نرى أن نبدأ فى ذلك بالصلاة .

وقبل الكلام على الصلاة ، نسطر كلمة موجزة عن الوضوء والغسل ،لأنهما من شروط صحة الصلاة . وبدونهما لا يمكن الدخول فيها ولا تأديتها ، فهما للمصلى من ألزم الوجوه .

الوضوء والغسل والتيمم

من الواضح أن الوضوء والغسل يقصد بهما تطهير أعضاء الجسم، ليكون الإنسان مستعداً للقاء ربه، والوقوف بين يديه، ومناجاته بقلب طاهر وجسم نظيف. وكيفية ذلك معلومة لكل مسلم، ولذلك لا يتعدى بحثي في هذا الأمر، ولا يتناول قولي عنه، سوى بيان ما للوضوء والغسل من الأهمية للصلاة، فضلاً عن الفائدة الصحية للجسم. وأنهما مع هذا من اليسر والسهولة، بحيث لا يقوم في سبيل أدائهما أي عائق، ولا يمنع من تأديتهما ثمة مانع.

ففي الوضوء يكفي أن يغسل الإنسان كل عضو من أعضائه مرة واحدة، ويمسح الرأس كذلك. ويصلي به ما شاء من النوافل والفرائض، ولا يزال كذلك حتى ينتقض.

أما الغسل فيكفي فيه تعميم الجسد بالماء.

ومن عجز عن استعمال الماء في غسل أو وضوء، أجيز له التيمم بضربتين: أولاهما للوجه، والأخرى لليدين. والتيمم يكون بالصعيد الطيب الخالي من النجاسة، ويقصد به تيسير السبيل للمصلي، لدخول الصلاة عند عدم وجود الماء للوضوء أو الغسل. وذلك كي يؤدي الإنسان صلاته مطمئنا إلى

صحتها ، واثقاً مستريحاً فى أدائها . وحتى لا يكون للمشقة سبيل إلى أى حكم من أحكام الدين الحنيف ، الذى حرص على مصالح العباد حتى لا تتعطل ، وعلى راحة الإنسان حتى لا تضيع .

هذا ومن الأكمل التثليث فى الغسل والوضوء ، وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم ، توضأ مرة مرة ، ومرتين مرتين ، وثلاثاً ثلاثا . وقال : (من زاد على ذلك فقد أساء وظلم) .

والأفضل كذلك الوضوء لكل صلاة . فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الوضوء على الوضوء نور على نور) .

ومع أن كلا من الوضوء والغسل سهل ميسور ، فلهما - كما ذكرنا - من الفوائد الصحية والشرعية شىء عظيم . فهما ينظفان الجسم مما به من الوسخ ، ويفتحان مسام الجلد فيسهل رشح العرق ، وتبقى طبيعة الجسم متزنة ، فيستمر قوياً نشيطاً . وعليهما تتوقف صحة الصلاة ، والطواف بالبيت الحرام ، وجواز مس المصحف وحمله . ولا يجوز لمن وجب عليه الغسل أن يقرأ القرآن ، أو يمكث فى المسجد قبل الإغتسال . كما قال عليه الصلاة والسلام : (لا يقرأ الجنب ولا الحائض شيئاً من القرآن) وقال الله تعالى : (وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

والوضوء يزيل الذنوب ، كما يزيل الماء الوسخ . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض ، خرجت الخطايا من فيه . فإذا استنثر ، خرجت الخطايا من أنفه . فإذا غسل وجهه ، خرجت الخطايا من وجهه ، حتى تخرج من تحت أشفار عينيه . فإذا غسل يديه ، خرجت الخطايا من يديه ، حتى تخرج من تحت أظفاره . فإذا مسح برأسه ، خرجت الخطايا من رأسه ، حتى تخرج من تحت أذنيه . وإذا غسل رجليه ، خرجت الخطايا من رجليه ، حتى تخرج من تحت أظفار رجليه . ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له)

وقد شرع الدين المسح على الجبيرة بالماء ، لمن لا يقدر على غسل العضو مباشرة أو مسحه . وإن لم يستطع المرء المسح على جبيرة واحدة ، فعلى جبيرة ثانية فوق الأولى . وإن لم يستطع كذلك ، فعلى ثالثة . وغير ذلك من التسهيلات التي ترفع الحرج والتضييق ، مما لا يدخل تحت حصر .

الصـــلاة

الصلاة هى أعظم العبادات شأناً ، وأوضحها برهاناً على امتثال الإنسان لأوامر خالقه . لذلك كانت عماد الدين ، من أقامها فقد أقام ، ومن تركها أو تهاون بها فقد برهن على ضعف إيمانه .

ويحسب البعض أن الصلاة لا تعدو هذه الألفاظ اللسانية ، والحركات الجسمانية . غير ناظرين إلى ماوراء ذلك من السر المكنون ، والكنز المدفون . كيف لا والصـــلاة أم الأعمال المقربة إلى الله ، دون غيرها من سائر العبادات . لأنها أدلها على الإيمان والطاعة ، كما أنها طهـــارة للنفس والجسم ، وصفاء للقلب والروح ، وبعد عن الكبائر . قال تعالى : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) . وهى مظهر الخشوع والخضوع ، إذ يقف الإنسان فيها بين يدى رب العالمين ، يناجيه ويستغفره ، ويواليه ويذكره ، ويحمـــده ويشكره . وهو القائل سبحانه : (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) . وفيها يضع العبد أشرف أعضائه على موطىء الأقدام ، ويلصق جبهته بالرغام . وبذلك يتضح أنه محتاج إلى من يهديه ويرزقه الثبات على الصراط المستقيم .

ولا يكمل فضل الصلاة ، ويتم المقصود من مشروعيتها ، حتى تؤدى مع الجماعة . فتظهر شوكة المؤمنين ، وتعلن شعائر الدين ، ويألف الناس العمل للصالح العام ، ويرى المسلم أنه محتاج إلى من يصلى معه ، حتى يعتصم الجميع من الشيطان ، وينالوا فضل الجماعة ، فيقفون صفوفاً متآخين ، قد نزع الغل والحسد من قلوبهم ، وذهبت الفوارق الدنيوية من بينهم ، وكانوا سواسية كأسنان المشط ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كما قال الله تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

وتعد الصلاة شعاراً للمسلم ، يتميز بها عن الكافر . كما قال عليه الصلاة : والسلام (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) . أى قرب من الكفار ، الذين من شعارهم ترك الصلاة . ولا شك أن تركها تكاسلا ، يؤدى إلى تركها تهاوناً واستخفافاً ، وهو الكفر الصراح . والإسلام يحول بين المسلم والكفر بحوائل متعددة ، حتى لا يستهويه الشيطان ، ويخرج به إلى حدود الكفر والطغيان . فمن ترك الصلاة وأصر على تركها ، فهو على حدود الكفر لذلك قال النبى « فمن تركها فقد كفر » لأن مايقرب من الشىء يعطي حكمه .

وعلى كل فإسلام المـــرء لا يتم بغـــير الصلاة، لأنها تحقق مبدأ الإســـلام، وهو مبـــدأ إنكار الذات. ففى الصلاة يسلم المرء نفسه إلى وازعها الإلهى، وهو أبداً يروضها على هذه الحركة مادام حيا. فينتزعها من أوهام الدنيا، ليضعها بين يدى خالقها، خمس مرات فى كل يوم. ويشعر بأنه كائن، يقوم مع الكائنات التى تسبح بحمد خالقها. وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشعر فى الصلاة بكمال الاتصال بينه وبين خالقه جل شأنه، ولذلك قال (جعلت قرة عينى فى الصلاة).

ويشترط للدخول فى الصلاة وإقامتها:

١ - طهارة الثوب والبدن: (يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)

٢ - طهارة المكان: (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ).

٣ - إستقبال القبلة: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ).

٤ ـ ويشترط أيضاً النية وستر العورة .

وقد كان الشارع جل وعلا حكيما فى اختيار الأوقات التى يؤدى فيها الإنسان الصلاة ، بحيث لاتعوقه عن الأشغال المعاشية . بل تؤدى فى أوقات الفراغ ، لتصادف قلباً خالياً فتمكن منه ، وتكون أشد تأثيراً فيه . قال تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ) .

فإقامة الصلاة فى (طرفى النهار) أى فى الغدوة والعشية ، وصلاة الغدوة هى الصبح ، وصلاة العشية هى الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال إلى الغروب عند العرب يسمى العشية . (وزلفا من الليل) أى ساعات قليلات من الليل ، وهى الأوقات التى تصلى فيها صلاة المغرب والعشاء .

وهذا يطابقه ماورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله فى اليوم والليلة » وماجاء فى حديث الإسراء من قوله عليه الصلاة والسلام « هن خمس وهن خمسون » أى خمس فى العمل ، وخمسون فى الثواب .

وتحديد الصلاة بهذا العدد ، فيه رحمة عظيمة بالإنسان لضعفه . ومن هذه الرحمة أن الله تعالى أهدر طلب الصلاة

وجوباً ، فى المدة التى قبل البلوغ . وراعى جل شأنه ألا يستغرق أداء الصلوات الخمس - وفيها من الركعات سبعة عشر - إلا اليسير من الزمن . فلو فرضنا أن كل صلاة تحتاج إلى خمس عشرة دقيقة على الأكثر ، فيكون مجموع ما يمضيه العبد فى الصلاة التى تقربه من ربه ، وتبعده عن شيطانه ، خمسا وسبعين دقيقة ، أو بعبارة أخرى ساعة وربعاً فقط من الأربع والعشرين ساعة ، وباقى الوقت متروك للانسان ليصرفه بين السعى لمعاشه ، وإراحة نفسه من جهد الحياة .

فهل يرى عاقل أن فى ذلك التقسيم غبناً ، أو فى هذه الفريضة تعباً ؟ وهل تلتمس لتارك الصلاة ومهملها أعذار ؟

اللهم إنها الرحمة الكبرى تجلت فى معاملتك لعبيدك ، ولا يقدر هذا إلا أنت ، فقد سبقت رحمتك غضبك ، وغفرانك عقابك .

وقد سمح الشارع لمن يعجز عن القيام فى تلك الركعات ، بأن يصلى قاعداً . فإن لم يقدر فمضطجعاً ، فإن عجز فمستلقيا . كما أباح الصلاة فى أى بقعة من الأرض . كما قال عليه الصلاة والسلام : (جعلت لي الأرض مسجداً ، وتربتها طهوراً . فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة ، فليصلّ) .

وقد رفع الدين الصلاة عن الحائض والنفساء، زمن حيضهما ونفاسهما، وأجاز للمسافر قصر الصلاة، وجمعها تقديماً وتأخيراً كما قال تعالى: (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ) .

وفوق ما تقدم من فضائل الصلاة الدينية والخلقية والاجتماعية، فإن لها فوائد رياضية. منها شرح الصدر، وسرور النفس، وقوة العضلات، بسبب حركاتها المنتظمة المعتدلة.

فهذه الفضائل جميعها، لاشك تدعونا إلى أن نحى باللوم على ذلك الشخص الذى يسمع داعي الله ولا يلبيه، وليس أظلم ممن يسمع الداعى إلى الفلاح ولا يأتيه. ومثل هذا قد استولى عليه شيطانه، واستعبده هواه. وسولت له نفسه الأمارة بالسوء، أن فى العبادة مشقة، وأن فى دخول المسجد وخلع الحذاء تعباً. فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور. (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، ولا يقل أثرها في الحياة الاجتماعية عن الفريضة السابقة . فقد قرن الله الزكاة بالصلاة في غير آية كقوله تعالى (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) فمن الواجب وقد علمنا هذا ، ألا نفرق بين ما جمع الله . فلا نهمل من بين العبادات الزكاة ، محبة منا في المال كما أشار الله تعالى بقوله : (وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا) . بل يجب علينا أداؤها ، لأن في ذلك شكراً لله على ما أولانا من نعمة ، ومن شكر الله زاده (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

والأصل في الزكاة أنها إعانة من الموسر للفقير المعوز ، وقد بين القرآن الكريم والسنة الشريفة مبلغ ما تعود به من الخير على فاعلها . قال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً) وقال صلى الله عليه وسلم (إن الصدقة لتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار) .

والزكاة طهارة للنفس من علة البخل والشح . قال تعالى : (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال : عليه الصلاة والسلام (لا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد أبداً) .

وللزكاة شأن هام فى عمارة الكون ، ونظام الهيئة الاجتماعية . فالله جلّت قدرته ، لم يخلق الناس متساوين ، لحكمة بالغة وسر عظيم . بل خلق منهم القوى والضعيف ، والغنى والفقير . والكل تطالبه الحياة بضرورياتها ولوازمها ، فيضطر الفقير أن يقضى حاجته من الغنى بالسؤال إن أمكن ، فإن لم يسد خلته وجدت الفوضى . ولا يتم مع هذا بقاء العالم ، ولا يصان نظام الكون . ولذلك نسمع دائماً عن انتشار الفوضويين فى جميع أنحاء العالم ، فيقتلون موسريهم ، ويذبحون أغنياءهم لعدم وجود مصارف للزكاة فى تلك البلاد ، حتى يزول عن فقرائها ما هم فيه من الفاقة .

والزكاة تدعو إلى الشفقة والرحمة بالفقراء والمساكين ، والضعفاء والمعوزين . بسد عوزهم ، وتنفيس كربتهم ، وقضاء دينهم . وفى ذلك إدخال السرور عليهم ، وهو أفضل الأعمال بشهادة النبى صلى الله عليه وسلم عند ما سئل : أى الناس أحب اليك ؟ قال (أنفع الناس للناس) قيل : وأى الأعمال أفضل ؟ قال : (إدخال السرور على المؤمن) . قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : (إشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه) .

وقد حث الله تعالى على أداء الزكاة لفوائدها فقال : (وَمَا

آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) أى أن مايخرجه المزكى من ماله، ويعطيه لمستحقيه من الفقراء، ويقصد بذلك وجه الله، شكراً له على نعمائه، فسيجزى على ذلك بالمضاعفة فى الثواب والمال ببركة الزكاة.

وصحاح الأحاديث، تبين لنا كيف أن الصحابة كانوا ينفقون أموالهم بسخاء فى سبيل الله، حتى يضاعفها لهم. فتثقل فى الميزان يوم القيامة (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

فقد روى أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: يارسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.

والمفهوم من الحديث أن السؤال صدر عن فريق من فقراء الصحابة وانهم كانوا يتمنون أن يكون عندهم مال زائد عن حاجتهم حتى ينفقوه فى سبيل الله، فيضاعفه لهم أضعافاً كثيرة، ويتساوون فى الثواب مع إخوانهم الأغنياء، الذين يشاركونهم فى جميع أعمال الطاعات، ويزيدون عليهم بفضل التصدق بفضول أموالهم.

ولعمري إن عملهم هذا المثل أعلى في نبل القصد، وتنافس في الطاعات والقربات، وتسابق كبير في الخيرات . لم يكن ليصدر إلا من نفوس قدرت مصيرها، وعملت لما بعد الموت . وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لاهم لهم في الحياة الدنيا إلا بذل النفس والنفيس في سبيل الله، لينعموا بما أعده الله للمحسنين من الثواب (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) . وكانت أرواحهم طائرة إلى لقاء ربهم (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) . وتجارتهم الإيمان واليقين، ومهمتهم الجهاد في سبيل الدين، يحدوهم إلى ذلك قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) . فلم يحفلوا بالمال إلا لإنفاقه في وجوه البر والإحسان، كي ينالوا ماأعده الله للمحسنين (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ . وَاللَّهُ يُضَاعِفُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

ففقراء الصحابة يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد سبقنا أصحاب الأموال الكثيرة « الأغنياء » إلى الدرجات العليا فى دار النعيم . فهم يؤدون الفرائض والأحكام كلها كما نؤدى ، فيساوونا فى أجر ذلك ، ويزيدون علينا فضل التصدق بالمال الزائد عن حاجتهم .

وإذا كان لقول الصحابة هذا معنى بالغ ، ففى رد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم عظة أبلغ . فقد أجابهم لما ظهر له حسن مقصدهم بقوله : (أو ليس قد جعل الله لكم ما تَصَّدَّقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة) . وقد وقع آخر الحديث منهم موقع الدهشة ، فقالوا : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه وزر . فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر) .

ولا نرى بأساً من أن نشير إلى ما فى الحديث من

الحث على ذكر الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والأجر على المباحات متى قارنتها النية الصالحة . ليكون بذلك أمر المؤمنين كله خيراً ، ويجد الفقراء فى الطاعة سبيلا إلى نيل رضوان الله .

على أن ما نعنيه من إيراد هذا الحديث هو الاستدلال على أفضلية الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر . والغنى الشاكر هو الذى لا يدخر من ماله إلا مايحتاجه حالا أو مآلا ، وما بقى يصرفه فى وجوه الخير . والقول بهذا التفضيل لا خلاف فيه ، إذ الواضح أن الفقراء لما ذكروا للنبى صلى الله عليه وسلم ، ما يقتضى فضل الأغنياء عليهم بسبب التصدق ، أقرهم على ذلك . ولم يجبهم بقوله أنتم أفضل منهم ، أو مساوون لهم ، بل ذكر لهم وجوه بر أخرى تشاركهم الأغنياء فيها لو فعلوها . ولا عجب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

انواع الزكاة

الزكاة على أنواع كثيرة أهمها : (ا) زكاة النقد ذهباً كان أو فضة (ب) زكاة عروض التجارة (ج) زكاة الفطر.

ا — زكاة النقد

يشترط فيها أن يبلغ المال النصاب أو أكثر ، ونصاب

الذهب عشرون مثقالا ، أى إثنا عشر جنيهاً تقريباً . ونصاب الفضة مائتا درهم ، أى مايساوى ٢٢ ريالا تقريباً . ويلزم مرور الحول عليها ، دون أن تنقص عن النصاب .

ومن الشروط أيضاً ، أن تكون النقود التى تدفع عنها الزكاة ذهباً كانت أو فضة ، مملوكة للمزكى ملكا تاماً . فلو كان يملك مبلغاً تحت يد غيره ، أى لم يقبضه منه ، فلا زكاة عليه . وكذلك لاتجب الزكاة إذا كانت النقود تزيد عن النصاب ، ولكن كان صاحبها مديناً بقدرها ، إذا كان الباقى له بعد الدين أقل من النصاب .

ب — زكاة التجارة

وهى عن الأشياء التى يتجر فيها التاجر كائنة ما كانت : بضاعة ، أو دوراً ، أو حيوانا . متى بلغت قيمتها نصاباً ، مثل نصاب الذهب والفضة الذى بيناه ، ومتى قلت التجارة فى تقديرها عن نصاب الذهب ، قومت بالفضة . فإن نقصت عن نصابها ، فلا زكاة فيها لعدم النصاب . ويشترط فى ذلك أيضاً أن يكون النصاب نامياً حقيقة بالتجارة ، ومضى عليه عام كامل .

وقد بينت الشريعة مقدار مايخرج من هذين النوعين . فذكرت أن مايخرج من النقد سواء كان ذهباً أو فضة : ربع

العشـــر أى ٢½ ٪ وقدر ذلك أيضـــاً فى عروض حتى التجارة وتقويمها يكون بما أشتريت به .

ولا تجب على الانسان الزكاة ، فى المال المشغول بحاجته الأصلية كدار سكناه . وإن كانت عنده دار واحدة أو دور متعددة ، لايحتاج اليها فى السكنى ، فإن كانت للاستغلال أى أخذ الأجرة منها ، فلازكاة فيها . وإن كانت للأتجار ، ففيهازكاة التجارة .

ج — زكاة الفطر

لانطيل كثيراً فى الكلام على زكاة الفطر ، لأن أهميتها معلومة من حيث ارتباطها بفريضة الصوم . وكل مسلم ملزم باخراجها عنه وعن جميع من تلزمه نفقتهم وهم أربعة :

١ ـ الزوجة ولو كانت مطلقـــة طلاقاً رجعياً أو بائناً (رجاء أن يعيد الله ودهما) إذا لم تكن ناشزاً .

٢ ـ العبد والخادم إذا لم يكن لهما راتب مقـــرر .

٣ ـ أصله سواء كان ذكراً أو أنثى .

٤ ـ فرعه ذكراً كان أو أنثى صغيراً أو كبيراً .

ويشترط بالنسبة لأصله وفرعه ألا يكون لهم مال يمكنهم إخراج الزكاة منـــه عن أنفسهم .

ومقدار زكاة الفطر قد بينه النبي صلى الله عليه وسلم فى خطبة له فقال: (أدوا عن كل حر وعبد صغير أو كبير نصف صاع من بر، أو صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير). والصاع قدحان بالكيل المصرى. ويصح إعطاء قيمة ذلك بالنقد.

مصارف الزكاة

بيَّن الله تعالى من تصرف لهم الزكاة فى قوله جل شأنه: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ. وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). وفى هذا بيان أن من يستحق الزكاة هو أحد الثمانيه الذين عرفتهم هذه الآية الكريمة. وهم:—

١ — الفقراء - وهم الذين يملكون شيئاً قليلا.

٢ — المساكين - وهم الذين لا يملكون شيئاً مطلقاً.

٣ — العاملون على الزكاة — وهم الذين يبعثهم الحاكم أو نائبه لجبايتها وتحصيلها.

٤ — المؤلفة قلوبهم على الإسلام - وهم الذين يرغبون الدخول فى الإسلام.

٥ ـ « وفى الرقاب » وهم المكاتبون أى الأرقاء الذين يتفقون مع مواليهم على مقدار من المال فإذا أدوه عتقوا .

٦ ـ الغارمون ـ وهم الذين عليهم دين إقترضوه فى طاعة أو مباح .

٧ ـ « وفى سبيل الله » وهم الغزاة فيصرف لهم مقدار من الزكاة ولو كانوا أغنياء إعانة لهم وتنشيطا

٨ ـ ابن السبيل ـ وهو المسافر الذى انقطع عن ماله فيعطى من الزكاة بقدر الحاجة .

ولمانع الزكاة فى الآخرة عذاب بينه الله تعالى فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

ولمؤدى الزكاة من الثواب والأجر العظيم ، ما يتضاءل معه المقدار المخرج ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يأخذ الصدقة بيمينه ، فيربيها حتى تكون عند الله مثل الجبل» فسبحانه الفضل منه واليه .

الصيـــام

يعد الصوم إلى جانب أنه فريضة دينية، طباً إسلامياً. لفائدته الصحية ويحمل أيضاً معنى أخلاقياً، أدبياً، إجتماعياً، إذ في إمساك الإنسان عن الطعام، شعور بألم الجوع. فتتولد عنده عاطفة الإحسان لأخيه المسلم الفقير. ومساعدته على معيشته. وهذا العمل يوجد ولاشك لدى الفقير محبة لمن يعطف عليه، فيقوم بخدمته، ولا تتطلع نفسه إلى ثروته. فكأن الصيام يزرع عواطف الولاء والإخلاص بين طبقتي الأمه، الأغنياء والفقراء. فيعيشون عيشة راضية، ويحيون حياة طيبـــة يحققـــون معنى الآية الكريمة (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

وحددت الشريعه للصيام شهراً واحـــداً في السنة، وهو شهـــر رمضان المعظم. لما لهـــذا الشهر من المزايا بنزول القرآن الكريم به، وبدء نزول الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه، ووقوع انتصارات المسلمين خلاله. ومن يتأمل في آيات الصيام من كتاب الله الكريم، يلمس يسر الإسلام وسهولته في هذه الفريضة أيضاً، ويدرك مقدار رحمة الله جل شأنه قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

فقوله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) يوضح بجلاء أن الله عز وجل لم يكلفنا أمراً صعباً ، بل فرض علينا صوماً كان مفروضا على من قبلنا من الأمم . فكأننا لم نكلف بما لم يكلف به غيرنا ، وإنما كلفنا بما ألفته نفس الإنسان ، واعتادته العباد .

وفى قوله تعالى (لعلكم تتقون) أشارة صريحة إلى أن الله عز وجل ، لم يفرض علينا الصوم تعذيباً ولا حرمانا .

بل فرضه تهذيباً لنا ، وتقويماً لنفوسنا . حتى نتقى الله ونراقبه ، ونعلم أنه مطلع على خطرات النفوس . (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) .

وبالنظر إلى قوله تعالى (أياماً معدودات) نرى أنه سبحانه لم يفرض علينا الصيام طول العام ، ولا نصفه ولا ربعه ، بل جعله أياماً قلائل من الحول الكامل ، أياماً يسيرات معدودات . هى أيام شهر رمضان المعظم ، الذى ذكر فضله المولى عز وجل فى قوله (شهر رمضان) الخ الآيات . وأنه هو شهر الرحمة والهداية والإحسان .

ولم يفرض الله سبحانه وتعالى الصيام إلا على من يستطيعه من الأصحاء المقيمين ، فمن دخل عليه شهر رمضان وهو صحيح مقيم قادر على الصوم ، وجب عليه . ومن كان مريضا أو مسافراً ، جاز له أن يفطر . فإن أفطر فلا حرج عليه ، وعليه أن يقضى ما أفطره من أيام أخرى ، متى انتهى سفره أو زالت علته . وكذلك أبيح الإفطار للحامل والمرضع ، إذا خافتا على نفسيهما أو على ولديهما . وأيضاً للشيخ الهرم ، الذى لا قدرة له على الصيام . وعليه وعلى من سبقتاه ، صدقة زهيدة جداً ،

«حفنة من طعام» يقدمها الواحد منهم عن كل يوم يفطره.

وقد عنى الدين بالصيام الإمساك عن الشهوات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وأحل للصائمين فى ليالي رمضان، ما استلزمته النفوس، واستطابته العقول، وأباحته الشريعة من الطعام والشراب والنساء.

وقد كان ذلك محظوراً بالليل فى مبدأ الإسلام طوال شهر رمضان، إذ كان يلزم الإمساك عن جميع المفطرات من صلاة العشاء، أو النوم ولو بدون صلاة. فمن صلاها أو نام بعد المغرب، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مغرب اليوم التالى. فكان وقت الإفطار ضيقاً جداً، وكان الناس يلقون من أمره ضيقاً وعنتا. حتى أدركتهم رحمة الله وعنايته، عندما حدث أن عمراً رضى الله عنه، واقع زوجته بعد صلاة العشاء ثم ندم، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، نزلت الآيات الآتية من كتاب الله ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ

لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) .

وكان من تمام التيسير فى هذه الفريضة ، أن من أكل أو شرب ناسياً وهو صائم ، فصيامه صحيح وليس عليه إثم أو قضاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا نسى أحدكم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه) فهل بعد ذلك تيسير فى دين ؟ أو تخفيف فى شريعة ؟ !

ومع هذا التخفيف فى الصوم ، فقد وعد الصائم من الأجر بما اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً . كما جاء عنه تعالى فى حديث قدسى (الصوم لي وأنا الذى أجزى به) وورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) .

فما تقدم يتضح أن الصيام فيه من التيسير ما يقطع حجة كل آثم ، وإلا فمن يقول بأن فى هذه الفريضة شدة أو مشقة . اللهم لا . فلا تعاملنا بما فعل السفهاء منا ، إنك بالمؤمنين رؤوف رحيم .

الحج

الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام ، هو حج بيت الله الحرام . وقد أوجب الله أداء هذه الفريضة على المستطيع . فقال تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) فمن فقد الزاد أو الراحلة ، أو خاف ضرراً على نفسه أو ماله أو عرضه ، يسقط عنه الحج . وأداء هذه الفريضة واجب على المستطيع مرة واحدة فى العمر ، وذلك لما روى من أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا) فقال رجل : يا نبى الله . أكل عام ؟ فسكت النبى صلى الله عليه وسلم حتى قالها الرجل ثلاثا . فقال عليه الصلاة والسلام : (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) .

ويمكننا أن نلمس الفوائد الاجتماعية التى تترتب على هذه الفريضة ، إذا علمنا أن عليها يتوقف معاش من يخدم الحاج فى طريقه ، من الجمال والحمال والمرشد وغيرهم ، ممن ليس لهم باب للرزق إلا الاشتغال بمثل تلك المهن . فضلا عما فى ذلك من إعانة إخواننا جيران زمزم والحطيم ، وقد حبب الله إلينا

ذلك بقوله بلسان الخليل إبراهيم : (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) . كما أن الحجاج يتمتعون بمشاهدة البيت العتيق . « بيت الله الحرام » الذى بين الله سبحانه وتعالى فضله فى قوله : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً) . وهو الكعبة المكرمة ، وقبلة المسلمين فى جميع بقاع العالم . فيتجهون بقلوبهم إلى الله الذى دعاهم ، ويستلمون الحجر ويقبلونه ، فيبايعون الله بأيمانهم . ثم يشهدون عرفة وقد خلعوا زينة الدنيا ، وطرحوا شهواتهم ظهرياً ، وأقبلوا جميعاً على الله يهللون ويكبرون عند المشعر الحرام . حيث تكون سرائرهم طاهرة ، وضمائرهم خالصة . ويتجلى عليهم ربهم بالجود والإحسان ، ويتفضل بالصفح عن زلاتهم ، والتجاوز عن خطيئاتهم التى اقترفوها قبل ذلك اليوم العظيم . فيرجعون إلى أوطانهم بفضل من الله ورضوان ، وذلك هو الفوز الكبير . لأن الله سبحانه وتعالى يقول : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً) .

ويعتبر الحج مؤتمراً إسلامياً عاماً ، لما يرى فيه من اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها فى صعيد واحد ، يجمعهم دين واحد . يختلطون فيتعارفون ، ويتآلفون فيتحابون . ويعرفون الخلل فى حياتهم فيصلحونه ، ويتبينون النجاح لتجارتهم فيتخونه ، ويذكرون الله على مارزقهم ، ويشكرونه على مامنحهم . ثم يقضون تفثهم - أى يزيلون وسخهم بخروجهم من خطيئاتهم - ويوفون نذورهم . ويطوفون بالبيت العتيق ، فيشهدون البقاع المقدسه ، وينظرون خلود الإسلام وعظمته ، ويرمقون مجده وعزته . ويشاهدون الأمكنه التى أشرق منها الإسلام فأضاء العالم ، ويتبركون بالأرض التى رفرف عليها الروح الأمين ، ونزل بخير كتاب للعالمين ، على النبى محمد سيد المرسلين . وذلك جميعه مابينته هذه الآية الكريمة :

﴿ وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) .

هذا على مافى موقف الحج من خشية ورهبة ، إذ يتجرد الجميع من المخيط والمحيط ، لافرق بين مملوك ومليك ، وسائد ومسود . وفى ذلك استئصال للأنانية التى تعترى النفوس ، وإعلان للمساواة الحقة بين المؤمنين . التى لا يمحوها إلا زيادة العمل الصالح عند فرد ، ونقصانه عند آخر ، تصديقاً لمنهاج الله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

ويحكى الحج برهبته هيئة البعث من القبور يوم القيامة ، ليلقى كل إنسان جزاء ماقدمت يداه (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه) . إذ تقف النفس ذلك الموقف العظيم ، فيتجلى لها الفارق الكبير بين مرارة المعصية وبشاعتها ، وحلاوة الطاعة ولذتها . فتدبر عن الأولى . وتقبل على الثانية . وترجع إلى موطنها ، وقد خرجت من ذنوبها ، ونقيت من خطاياها ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس .

وسبيل الحج اليوم سهل ، فالطريق آمن والراحة مكفولة ، ولم يبق إلا التوفيق . نسأل الله أن يوفقنا إلى حج بيته ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فذلك أسعدما تشد إليه الرحال .

الحياة في الإسلام

نخرج من هذا البحث بأن الإسلام شريعة محكمة، وفرائض منزلة، من لدن حكيم خبير. تصلح مابين العبد وربه، وتوثق علاقته بني جنسه، وترشده إلى مايلزمه أزاء نفسه. وهو ببساطة مبادئه، وصفاء فطرته، وحكمة تعاليمه، وسمو مبادئه. مثل البستاني للحديقة. يشذب الأغصان وينقيها من الأعشاب، ويكسو أرضها حلة سندسية جميلة، ويحفها بالنخيل والأعناب ويفجر الأنهار خلالها تفجيرا، ويجعل الحياة تدب فيها سريعا. فتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتصبح بهجة للزائرين، وزينة للناظرين. وهذا مصداق قول الله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

فالدين الإسلامي لما له من الفوائد الجسيمة والمنافع العميمة، والمحاسن العظيمة، هو الدين المرضي عند الله سبحانه وتعالى دون غيره من سائر الأديان. كقوله جل شأنه (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ). أي إن الدين المرضي عند الله هو دين الإسلام لاغيره، وقد حذر جل شأنه من

طلب ديناً سواه ، ونادى بالخسران على من اتبع ماعداه . فقال تبارك إسمه : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) . كما حث جل شأنه على إقامته ، والعمل بما فيه . وجعل نبيه صلى الله عليه وسلم ، بريئاً ممن عمل بخلافه ، وسعى فى تفرقته . فقال سبحانه : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

ولا شك فى أن الذين استجابوا لله وللرسول صاحب هذه الدعوة ، وعملوا بمقتضاها وساروا على نهجها ، كانوا فى تراحمهم ، وتعاطفهم ، وتعاونهم على البر والتقوى ، قدوة لغيرهم . فيستفيد كثير من أهل الأديان الأخرى ، من ظهور هذه الآثار العجيبة فى المسلمين ، إقبالا على بحث أسبابها ، وتفكيراً فى بواعثها وعللها . فيهديهم البحث والتفكير إلى أن تعاليم الإسلام هى أساس الخير كله ، ويصل الكثير منهم إلى الهدى من هذا الطريق . وبهذا يكون المسلمون قد أدوا رسالتهم بالدعوة إلى دين الله (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

الختام

الآن وقد انتهيت من البحث الذى سطرته فى هذا الكتاب، عن الدين الإسلامى وتكاليفه وآدابه وأحكامه. خدمة للحق، وقياماً بواجب الدين والدعوة اليه. أرى أنى قد فتحت الباب لإخوانى المسلمين فى أن يطرقوا مثل هذه البحوث التى تبصرهم بدينهم، وتمكن العقيدة فى نفوسهم. فيكون إيمانهم مدعماً بالدليل، مقوى بالحجة والبرهان. لا يزعزعهم عنه مضلل، ولا يحيرهم فيه مشكك، ولا يصرفهم منه مبتدع.

وأتوجه بلسان جميع المسلمين، بشكر الله رب العالمين، إذ جعلنا من أهل هذا الدين الحنيف. ونضرع اليه سبحانه، أن يثبتنا على هذا الدين الحق، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

(رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ).

محمد السعيد مصطفى
٢٧ شارع سعيد الاول باسكندرية

obeikandl.com